

دراسة التغطية الاعلامية للقضايا الدينية في برامج الحوارات الاجتماعية التلفزيونية (تشرين الثاني 2014-كانون الثاني 2015)

مقدّمة

تثير إشكالية الدين ومكانه في الحيز العام جدلاً واسعاً منذ الفترة التي سمّيت بـ"مرحلة عودة الدين"، أي منذ مطلع التسعينات، وهي المرحلة التي شهدت سقوط أو فشل المشاريع القومية والوطنية والشيعية في العالم، وما تلاه من صعود للخطاب الديني وللمشاريع السياسية المرتبطة به. وقد تركّزت هذه المشاريع في المجتمعات العربية خاصّة، وهي التي تتمسّك بالمرجعية الدينية في أصول الحكم "حيث لا تزال تتداخل في حياة مشتركة مجموعة من الطوائف والمذاهب الدينية، وبشكل خاص المذاهب الإسلامية"¹.

وفي لبنان، تحلّ الأديان موقعاً متقدماً في المشهد العام للمجتمع، إذ تتألف الدولة من مجموعة طوائف دينية تتقاسم السلطات في ما بينها. وقد جعل الدستور كلاً منها كياناً مستقلاً يتمتّع بامتيازات وحقوق كبيرة على الصعيد السياسي، التشريعي، التعليمي (الموادّ 9، 10، 19 و24 خاصّة، وما ينتج عنها من تشريعات عديدة). إلا أن هذا الدستور جعل لمؤسسة الدولة موقعاً حيادياً لا يتبنّى أي دين أو طائفة، رغم إشارته إلى "تأدية الدولة فروض الإجلال لله تعالى" (المادة 9)، مع ما ينتج عن هذا الموقع من مساحة عامة مشتركة.

وقد شهد الحيز العام، منذ انتهاء الحرب الأهلية عام 1990، تقلّصاً كمساحة مشتركة تمّ تقاسمها بين القوى الطائفية، زاد من سرعته تصاعد نفوذ الأصوليات الدينية المتشدّدة في دول عربية عديدة تشهد نزاعات مسلّحة ابتداءً من عام 2011. هذه النزاعات أثّرت سلباً على المشهد اللبناني فأجّجت الانقسامات فيه، ورفعت من نسبة الاحتقان ذي الخلفية الطائفية. وإذا اعتبرنا أن النظام السياسي الطائفي الذي يجعل من العنوان الديني مادّة خلافية لإثارة عواطف الناس وغرائزهم، وبالتالي استقطاب شريحة كبيرة من المشاهدين، هو ما يبرّر احتلال هذا الموضوع للفضاء الإعلامي عامّةً، فما هو التبرير الموضوعي التي تعطيه وسائل الاعلام الخاصّة لاحتلال الموضوع الديني ورجاله لمنابرهما؟ وما هو حجم هذا الموضوع وموقعه في المناقشات العامة على منابر تلك الوسائل؟ وكيف تتمّ مقارنته؟

¹ قرم، جورج (2011): *تعدّد الأديان وأنظمة الحكم*، دار الفارابي، بيروت، ص. 8 (مقدّمة الطبعة الرابعة).

1- المادة البحثية

أ. البرامج التلفزيونية الثلاثة

للإجابة على هذه الإشكالية، قمنا بدراسة حجم الموضوع الديني وموقعه وصورته في الحيز الإعلامي التلفزيوني الخاص. وتشكّلت المادة البحثية التي اعتمدنا عليها من مضمون ثلاثة برامج حوارية تلفزيونية تتناول مواضيع اجتماعية منوعة، تتميز في تشابهها شكلاً (تعدّد الفقرات والضيوف وطريقة تعاطي المقدمين الثلاثة مع المواضيع، توقيت العرض، شكل الاستوديو والديكور...) ومضموناً (مواضيع ساخنة، مرتبطة مع أحداث محلية أو عالمية، شعبية بمجملها، متداولة على مواقع التواصل الاجتماعي، ويتمّ التقديم لكل موضوع عادةً من خلال تقرير مصوّر يعده فريق العمل، يطرح إشكالية الفقرة ويكون المادة المركزية للحوار...). وتتميّز هذه البرامج أيضاً في أنّها تُعرض في اليوم نفسه على ثلاث محطات تلفزيونية مختلفة تحتلّ المواقع الثلاثة الأولى في المشهد التلفزيوني اللبناني لناحية حصة كلّ منها من المشاهدين، وذلك بحسب أرقام شركة "أيبسوس" Ipsos لعام 2014. هذه البرامج هي: "حكي جالس" (تبنّه "المؤسسة اللبنانية للإرسال انترناشيونال" LBCI كل اثنين في الساعة 21:30 ويقدمه جو معلوف)، "للنشر" (تبنّه محطة "الجديد" New Tv كل اثنين الساعة 20:40 ويقدمه ريمّا كركي)، و"طوني خليفة-1544" (تبنّه محطة "مرّ تلفزيون" MTV كل اثنين الساعة 21:45 ويقدمه طوني خليفة).

ب. فترة الدراسة

أما فترة رصد البرامج المُختارة، فامتدّت على مدى ثلاثة أشهر متتالية، من 3 تشرين الثاني 2014 حتى 19 كانون الثاني 2015. هذه العينة الأولية شملت إداً 12 حلقة من كلّ من البرامج الثلاثة (أي ما مجموعه 36 حلقة)، تمّ رصدها بأكملها ثمّ معاينة مضمون فقراتها لتحديد ما يندرج ضمن الإطار الديني من المواضيع التي تناولتها. مع الإشارة إلى أنّ كل حلقة من البرامج الثلاثة تتشكّل من مجموعة فقرات لا تتساوى بالضرورة في المدة الزمنية ولا في تركيبة ضيوفها، كما أنه ليس من الضروري أن تكون مواضيع فقرات الحلقة الواحدة مترابطة في ما بينها.

ج. العيّنة

بعد مشاهدة الحلقات الـ36 بهدف تحديد موضوع فقراتها، تمّ رصد 21 فقرة تناولت قضايا ومواضيع حوارية تندرج ضمن إطار الموضوع الديني. هذه الفقرات شكّلت العيّنة النهائية من المادة البحثية التي قمنا بتحليل مضمونها. مع الإشارة إلى أنّ البرامج الثلاثة تطرقت في خمس فقرات أخرى إلى مواضيع مرتبطة بالدين أو بالمؤسسة الدينية بشكلٍ ما، دون أن تشكّل مادة حوارية، ارتأينا إقصاءها من عيّنة الدراسة².

² توزعت هذه الفقرات الخمس على الشكل التالي: ثلاث فقرات مرتبطة بالحلقة التي خصّصت لعيد الميلاد وعُرضت بتاريخ 2014/12/22 (بث مباشر من جبيل وسط مظاهر احتفالية بالعيد في برنامج "طوني خليفة-1544"، أنشودة عن الميلاد أدتها فرقة "جمعية المبرات الخيرية الإسلامية"

2- المنهج

المنهج الذي اتبعناه لتحليل الفقرات الحوارية الـ21 والمرتبطة بموضوع ديني تكوّن من قسمين متكاملين:

-القسم الأول من الدراسة اهتمّ بالتحليل الكمي للمضمون، اعتمدنا فيه على مؤشرات كمية متعدّدة بهدف الإجابة عن الإشكالية المطروحة. هذه المؤشرات تناولت عدد الفقرات، توزيعها على المحطّات التلفزيونية الثلاث، المحاور التي تناولتها ونوعها، المساحة الزمنية المخصّصة لها، صفة المتكلّمين فيها، جنسهم والتوزيع الطائفي والمذهبي لرجال الدين منهم، إضافة إلى مؤشر كميّ لنوع الخطاب المعتمد من قبل الأشخاص المتكلّمين في الموضوع.

-أما القسم الثاني من الدراسة، فركّز على التحليل النوعي لمضمون الفقرات، آخذين بعين الاعتبار السياق السياسي والاجتماعي التي طرحت فيه كل قضية، إضافة إلى مجموعة من المؤشرات النوعية التي تُعتمد في تحليل البرامج الحوارية. هذه المؤشرات تتعلّق بالضيوف المتكلّمين ومضمون خطابهم، كذلك بالإعلامي الذي يدير الحوار والدور الذي يلعبه ومضمون خطابه.

وسننكّم عن الخطوات التحليلية التي اعتمدناها، بالتفصيل، في مقدّمة كلّ قسم من هذين القسمين.

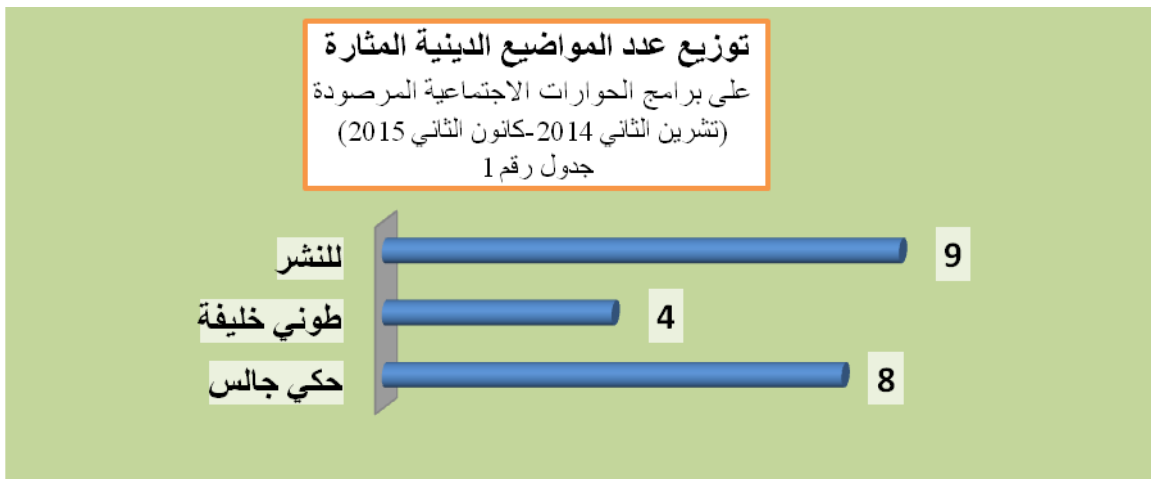
إضافة إلى قضية نزاع بين دير الشرفة للسريان الكاثوليك ومواطنة في برنامج "للنشر"، وفقرتان لموضوعين أثارهما برنامج "حكي جالس" (اعتداء موكب يعود للبطريك الكلداني على أحد المازّة بتاريخ 2014/12/15 وقضية لوحة فنية ساخرة تتضمّن "كأس قربان" بتاريخ 2015/01/19).

القسم الأول: التحليل الكمي للمضمون

في هذا القسم المتعلق بالتحليل الكمي للمضمون، قمنا باستخدام مؤشرات عديدة ومختلفة بهدف الوصول إلى نتائج أولية تعكس، بأفضل طريقة ممكنة، ميول البرامج الثلاثة وسياستها في التعاطي مع الموضوع الديني³. في مرحلة أولى، شكّلت الفقرة وحدة التسجيل (وهي الجزء من المضمون الذي يجب تصنيفه) وذلك بغض النظر عن مدتها. استخدمت هذه الوحدة (الفقرة) لتحديد توزيعها عددياً على البرامج الثلاثة إضافة إلى توزيعها على المحاور الدينية السبعة التي حدّناها. في مرحلة ثانية، شكّلت المساحة الزمنية (بالتواني) وحدة التسجيل. استخدمت هذه الوحدة لتحديد الوقت الذي خصّص لنوع الموضوع الديني (عقائدي أم اجتماعي). وفي مرحلة ثالثة، شكّل الأشخاص المتكلمين وحدة التسجيل التي وهي استخدمت لتحديد توزيعهم بحسب صفتهم، بحسب جنسهم، وكذلك بحسب نوع الموضوع الديني (عقائدي أم اجتماعي)، إضافة إلى توزيع رجال الدين منهم بحسب الانتماء الطائفي. أما المرحلة الرابعة والأخيرة، فاعتمدت على الكلمة-المفتاح كوحدة تسجيل، وذلك بهدف استخدامها كمؤشر لنوع الخطاب الديني (نقدي، متشدّد، متسامح).

1- الموضوع الديني: عدد الفقرات، محاورها وتوزيعها

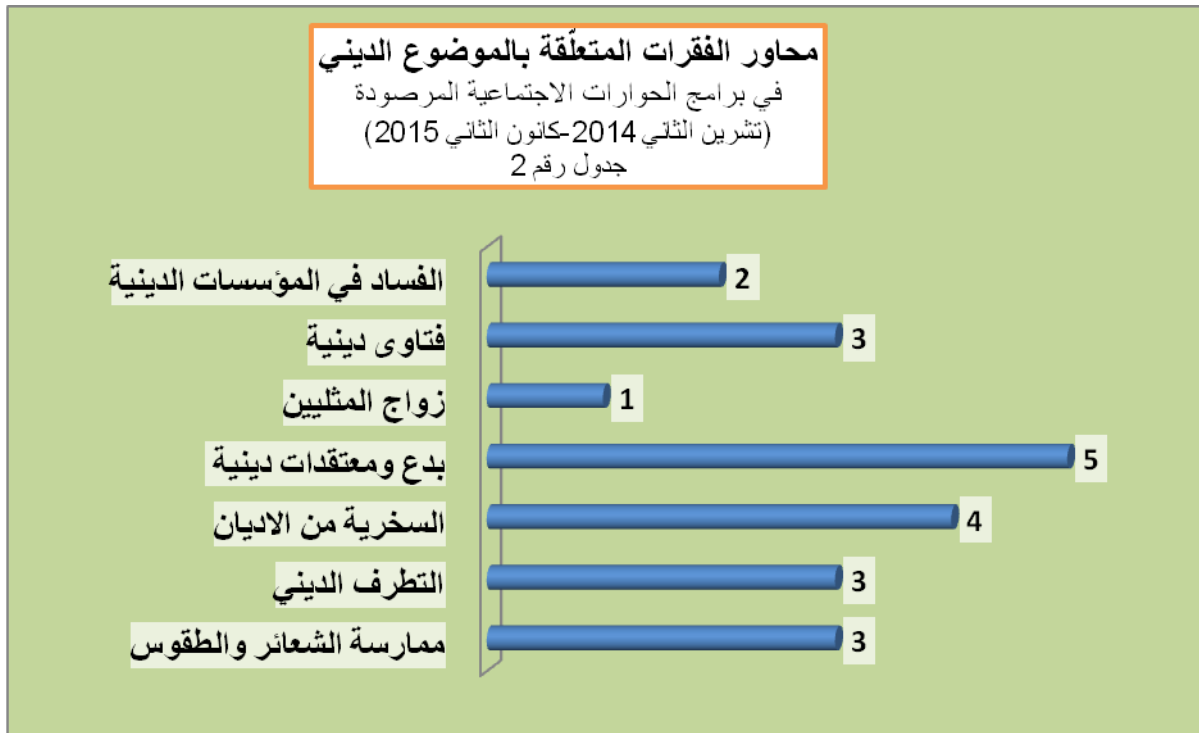
بلغ عدد الفقرات التي تطرقت إلى مواضيع متعلّقة بالدين 21، وذلك في الفترة الممتدّة بين تشرين الثاني 2014 وكانون الثاني 2015. أثار "النشر" العدد الأكبر منها بـ9 فقرات، وذلك بغض النظر عن المساحة الزمنية المخصصة للموضوع. تلاه "حكي جالس" بـ8 فقرات، فيما لم يتطرق برنامج "طوني خليفة-1544" للموضوع الديني إلاّ في 4 فقرات (الجدول رقم 1).



الجدول رقم 1: توزيع عدد المواضيع الدينية المثارة على البرامج الثلاثة

³ Bardin, Laurence (2007), *L'analyse de contenu*, Presses Universitaires de France, Paris, p. 134-149.

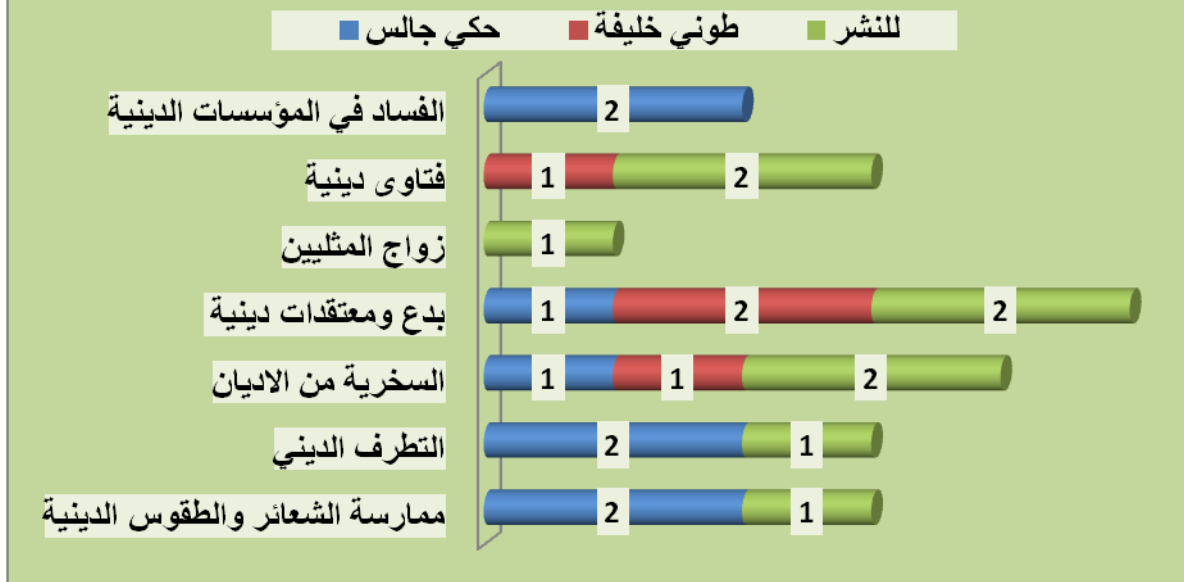
أما محاور الفقرات الدينية الـ21، فجاءت متنسّبة (7 محاور) تعكس بالدرجة الأولى الأهمية التي تُعطي لهذا الموضوع بكل جوانبه في المجتمع اللبناني، كما تعكس بالدرجة الثانية احتلال هذا الموضوع مساحة النقاش العام في لبنان (كما في العالم) بعد حدث الاعتداء على مقرّ صحيفة "شارلي إيبدو" في باريس في 7 كانون الثاني 2015 وما تلاه، وذلك على خلفية السخرية من الأديان في رسوم الجريدة الكاريكاتورية. وفيما احتلّ محور "البدع والمعتقدات الدينية" المركز الأول لناحية أكثر المحاور المثارة (5 فقرات)، جاء محور "السخرية من الأديان" في المركز الثاني (4 فقرات). واشتملت محاور "التطرّف الديني"، الفتاوى الدينية و"ممارسة الشعائر والطقوس" على ثلاث فقرات لكلّ منها. كما تناولت فقرتان "الفساد داخل المؤسسات الدينية"، وفقرة واحدة "زواج المثليين" (الجدول رقم 2).



الجدول رقم 2: محاور الفقرات الـ21 المتعلّقة بالموضوع الديني

وإذا ما غصنا أكثر في توزيع هذه المحاور على البرامج الثلاثة بشكل تفصيلي (الجدول رقم 3)، نجد أن محوري "البدع ومعتقدات الدينية" و"السخرية من الأديان" هما الوحيدان الذين تمّت إثارتهما في كلّ من البرامج الثلاثة، ومردّد ذلك إلى واقع فرضته أحداث باريس كما ذكرنا سابقاً. كما نلاحظ أن برنامج "النشر" عالج أكبر عدد من المحاور (6 محاور)، تلاه "حكي جالس" (5 محاور)، فيما انحصرت الفقرات القليلة نسبياً المرتبطة بالموضوع الديني في برنامج "طوني خليفة-1544" بثلاثة محاور فقط. من ناحية أخرى، انفرد برنامج "حكي جالس" بإثارة قضايا مرتبطة بفساد في المؤسسة الدينية (فقرتان).

توزيع محاور الفقرات الـ21 المتعلقة بالموضوع الديني بشكل تفصيلي
على برامج الحوارات الاجتماعية المرصودة
(تشرين الثاني 2014-كانون الثاني 2015)
جدول 3



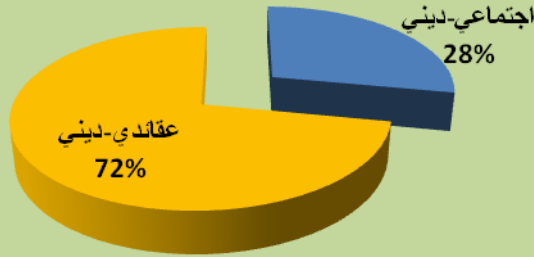
الجدول رقم 3: التوزيع التفصيلي لمحاور الفقرات الـ21 المتعلقة بالموضوع الديني على البرامج الثلاثة

2- نوع الموضوع الديني: حجم التغطية من حيث المساحة الزمنية

في خطوة أخرى مرتبطة بالتحليل الكمي، قمنا بقياس كمية الوقت (بالثواني) المخصص للموضوع الديني المنار في البرامج الثلاثة، وقد بلغت 31.090 ثانية. وجاء ترتيب البرامج الثلاثة لناحية الأهمية المعطاة للموضوع الديني من حيث المساحة الزمنية المطلقة مطابقاً لترتيبها من حيث عدد الفقرات. فخصّص له "للنشر" 13.970 ثانية، تلاه "حكي جالس" بـ10.040 ثانية، ثم "طوني خليفة" بـ7.080 ثانية. بعد فرز المساحة الزمنية المخصصة للموضوع الديني، قمنا بالتمييز بين المحاور التي تتناوله من ناحية جوانبه ومظاهره العقائدية، والمحاور التي تثيره من ناحية تأثيراته وظواهره الاجتماعية. وكان لافتاً تفوق المساحة الزمنية المخصصة للموضوع الديني-العقائدي (72%) على تلك المخصصة للموضوع الديني-الاجتماعي (28%). ويمكن إرجاع ذلك إلى تنامي ظاهرة التطرف الديني وما ينتج عنها من خلافات عقائدية وفتاوى مثيرة للجدل داخل الديانة ذاتها، إضافة إلى تشعب المرجعيات الدينية في المنطقة.

توزيع مساحة التغطية وفقاً لنوع الموضوع الديني المثار

في برامج الحوارات الاجتماعية المرصودة
(تشرين الثاني 2014-كانون الثاني 2015)
العينة الاجمالية بلغت 31090 ثانية
جدول رقم 4

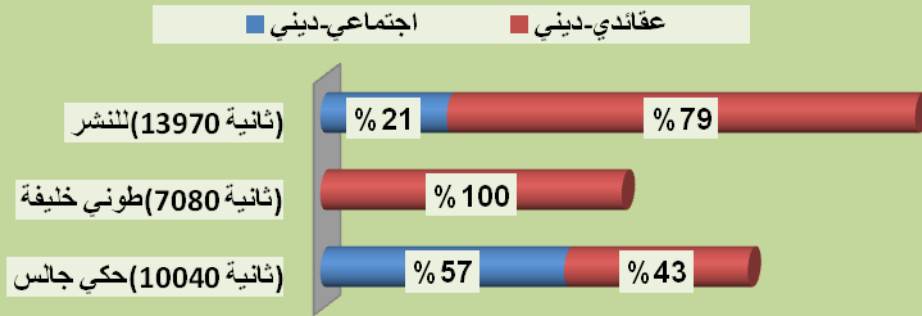


الجدول رقم 4: توزيع مساحة التغطية وفقاً لنوع الموضوع الديني

واللافت أن المساحة المخصصة للموضوع الديني في "طوني خليفة-1544" صبت كلها في البعد العقائدي له (الجدول رقم 5). ويمكن وضع ذلك في خانة البحث عن الإثارة من خلال طرح مواضيع خلافية وجدلية بعيدة عن المشاكل الاجتماعية اليومية. لكن هذه الفكرة تبقى فرضية سنحاول التأكد منها في القسم الثاني من الدراسة المخصّص للتحليل النوعي. كما خصص "النشر" المساحة الأكبر المعطاة للبعد العقائدي أيضاً (79%) عند معالجة الموضوع الديني. فيما وازن "حكي جالس" بين البعدين الاجتماعي (57%) والعقائدي (43%)، الأمر الذي قد يعكس اهتماماً أكثر بروزاً بمواضيع تتعلق بقضايا الناس اليومية، خاصة أنه سبق ولاحظنا في الجدول الثاني إثارة هذا البرنامج لقضية الفساد في المحاكم الدينية. وسنحاول التأكد من هذه الفرضية أيضاً في القسم الثاني.

توزيع مساحة التغطية التفصيلي وفقاً لنوع الموضوع الديني المثار

في برامج الحوارات الاجتماعية المرصودة
(تشرين الثاني 2014-كانون الثاني 2015)
من مجموع التغطية البالغة 31090 ثانية
جدول رقم 5



الجدول رقم 5: توزيع مساحة التغطية التفصيلي وفقاً لنوع الموضوع الديني

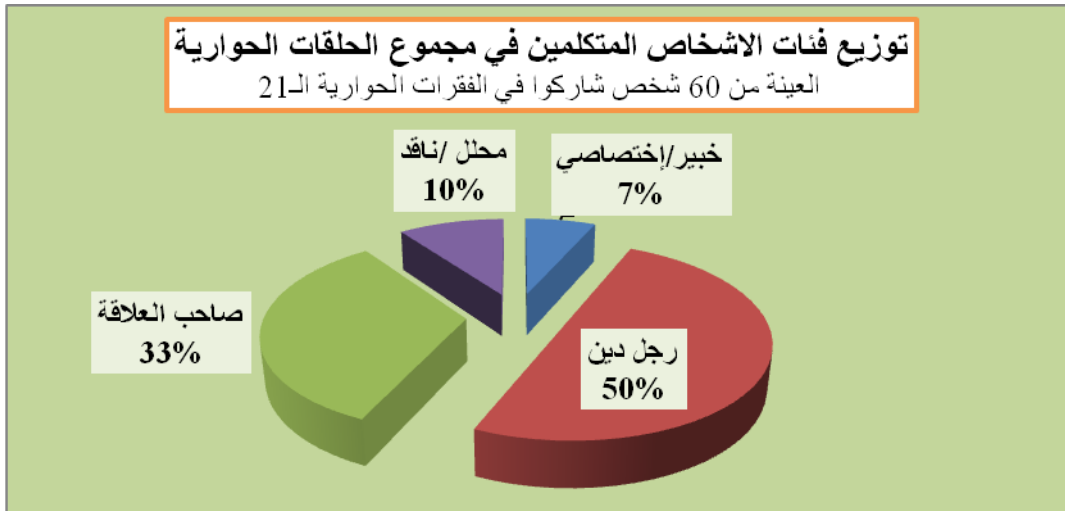
3- خصائص المتكلمين

الخطوة الثالثة من البحث الكمي الذي قمنا به تمثلت بدراسة خصائص المتكلمين في البرامج التلفزيونية الثلاثة المرصودة بين تشرين الثاني 2014 وكانون الثاني 2015. وقد تركّز اهتمامنا في هذا الإطار على ثلاثة متغيّرات: الصفة، المذهب والطائفة (في ما يتعلّق برجال الدين)، الجنس.

أ. صفة المتكلمين

يكتسب توزيع الأشخاص المتكلمين في الموضوع الديني بحسب صفتهم التمثيلية (الجدول رقم 6) أهمية خاصة في الواقع اللبناني، إذ أن هذا الموضوع لا يتعلّق فقط بالقيّمين على المؤسسات الدينية. ففي لبنان تُعتبر المجموعات الدينية المكوّن الرئيسي للدولة، وهذه المجموعات تفرض على الفرد هوية دينية/طائفية حتى قبل ولادته، وتنطوي هذه الهوية على حقوق وواجبات تختلف من مجموعة إلى أخرى.

في هذا الإطار، كان لافتاً سيطرة رجال الدين على المساحة المعطاة للموضوع الديني في البرامج الثلاثة. فمن أصل 60 متكلماً في الفقرات الـ21، شكّل رجال الدين نصف هذه المجموعة (30 شخصاً أي ما نسبته 50%)⁴. وإذا ما استثنينا أصحاب العلاقة المتكلمين في الفقرات الدينية - وهم غالباً ما كانوا معنيين مباشرة بالموضوع المثار (بلغ عددهم 20 شخصاً يشكلون ما نسبته 33% من مجموع المتكلمين) -، نلاحظ ضعف حضور أصحاب الاختصاص أو المتعاطين بالشأن العام على منابر البرامج الثلاثة. إذ لم تتخطّ نسبة الخبراء والاختصاصيين الـ7% (4 أشخاص)، ونسبة النقاد والمحلّلين الـ10% (6 أشخاص)، وذلك في غياب كامل لأراء الشرائح الأخرى من المجتمع المدني أو من المواطنين، وهي شرائح لا تقلّ شأنًا، لناحية تأثرها بالموضوع الديني بمختلف جوانبه، عن رجال الدين.

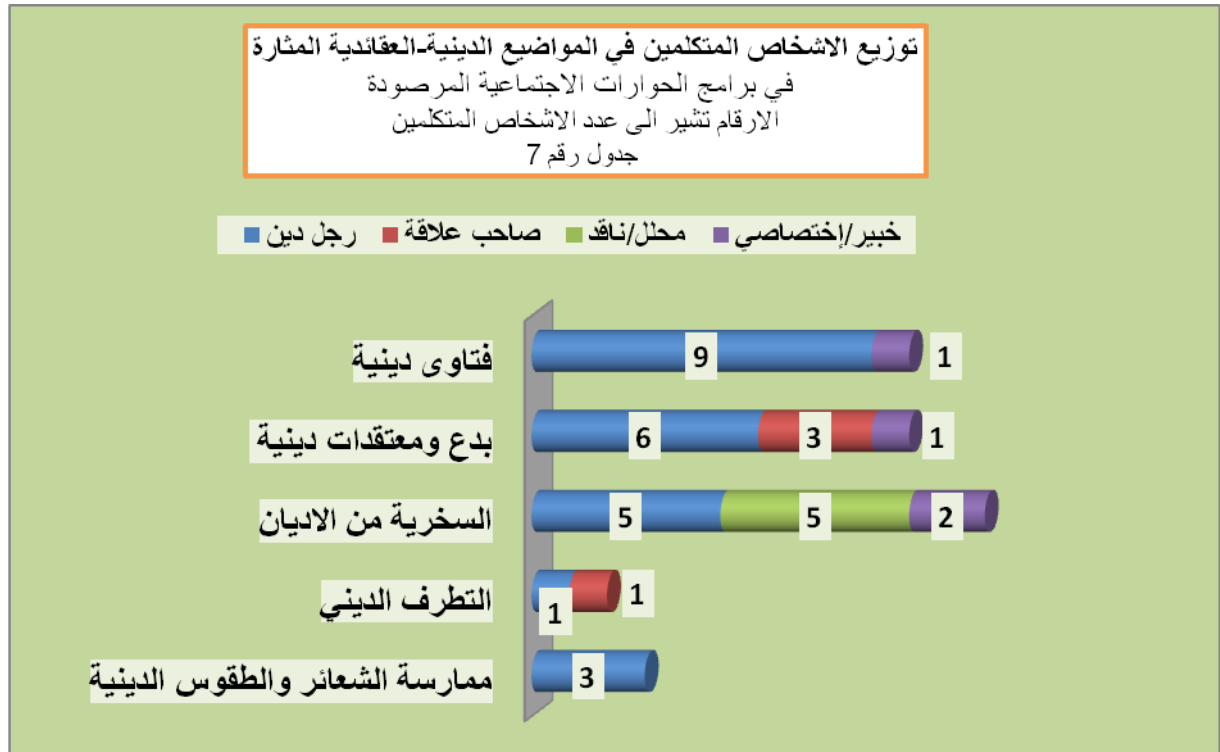


الجدول رقم 6: توزيع فئات المتكلمين في الفقرات الـ21 المتعلقة بالموضوع الديني (بالنسب المئوية)

4 مع أن معايير البحث العلمي لا تحيّد استخدام النسب المئوية إلا عندما يتخطّى العدد المنسوب إليه المئة، ارتأينا هنا استخدامها بهدف تسهيل عملية قراءة النتائج.

في المقابل، يمكن اعتبار سيطرة رجال الدين على المنابر الإعلامية الثلاثة نتيجةً لسيطرة الموضوع الديني العقائدي على الموضوع الديني الاجتماعي كما رأينا في الفقرة السابقة (الجدولان رقم 4 و5). إذ أن البعد العقائدي يعطي مشروعية أساسية لاختيار رجل الدين كمتحدث بالموضوع، ويمكن اعتباره خبيراً واختصاصياً في هذا المجال. وهذا ما سيؤكدده الجدول رقم 7 المتعلق بتوزيع المتكلمين في المحاور الدينية-العقائدية، إذ تنحصر سيطرة رجال الدين على منابر البرامج الثلاثة في هذا الشقّ العقائدي فقط، فيشكلون ما مجموعه 24 متكلماً (من أصل 37 متكلماً في الموضوع-الديني العقائدي)، فيما تتمثل فئة "ناقد/محلل" بخمسة متكلمين فقط، أمام كل من فئتي "اختصاصي/خبير" و"صاحب علاقة" المتمثلتين بأربعة متكلمين لكل منهما.

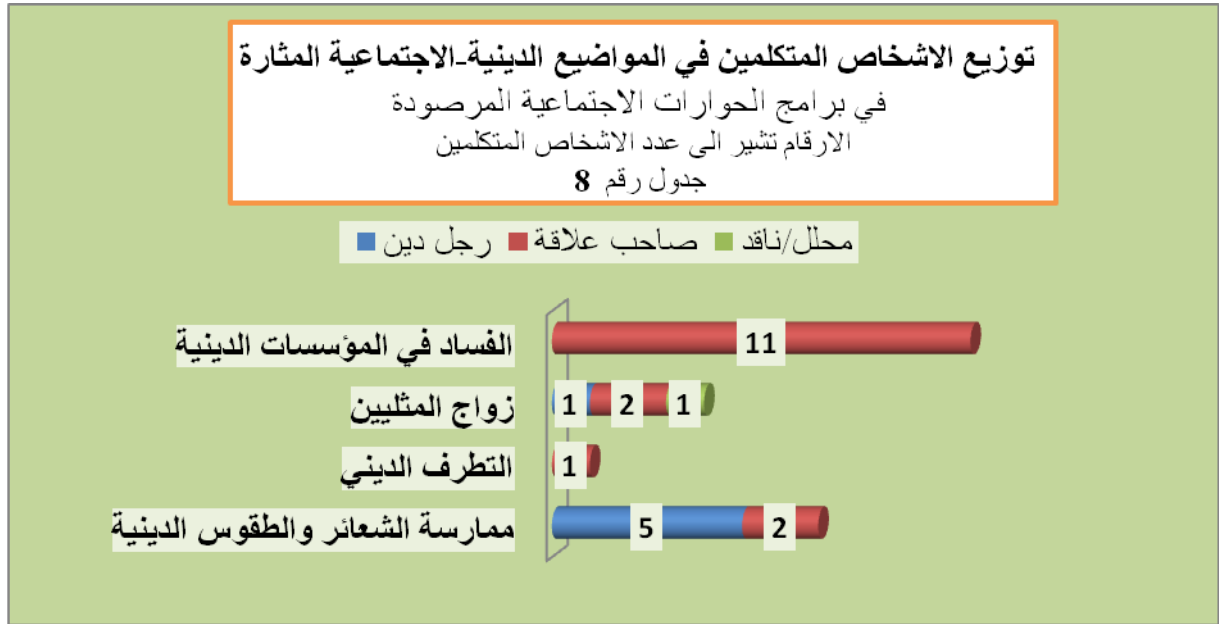
وإذا كان استحواذ رجال الدين على المحورين المتعلقين بالفتاوى الدينية (9 من 10) وبالبدع والمعتقدات الدينية (6 من 10) يعتبر أمراً بديهياً (بغض النظر عن زاوية معالجة المحور الثاني، وإذا كان وجود رجال الدين فيه مرادفاً لعملية إقصاء أو تشويه لمعتقدات مهمشة عددياً أو اعلامياً، قد يعتبرونها مخالفة لمعتقداتهم السائدة، وهذا الأمر لا يمكن معالجته إلا في القسم الثاني من الدراسة)، نرى أن مشاركتهم في محور "السخرية من الأديان" جاءت معتدلة. ففي هذا المحور، كان هناك حضور لافت للنقاد والمحللين يوازي حضور رجال الدين (خمسة متكلمين لكل فئة)، فيما تمثل "الاختصاصيون/الخبراء" بتكلمين فقط.



الجدول رقم 7: توزيع فئات المتكلمين في الفقرات المتعلقة بالموضوع الديني-العقائدي (بعدد الأشخاص)

هذا الحضور الطاغي لرجال الدين في الموضوع الديني العقائدي قابله حضورٌ ضعيفٌ نسبياً في الموضوع الاجتماعي الديني (الجدول رقم 8)، خاصة في محور "الفساد في المؤسسات الدينية". فقد غاب

رجال الدين المعنيون بصورة أساسية عند طرح قضايا الفساد في مؤسساتهم على منبر برنامج "حكي جالس" الذي أثار هذه القضية، فخلت الساحة لأصحاب العلاقة حصراً وكان عددهم 11. وفي مكان آخر، بدأ محور "الانفتاح في ممارسة الشعائر الدينية" مستقطباً لرجال الدين، أكان الموضوع عقائدياً (3 من 3) أم اجتماعياً (5 من 7). ويمكن تفسير ذلك بالرمزية التي يملكها هؤلاء لجهة التسويق لخطاب منفتح ومتسامح في مرحلة تشهد اضطرابات عديدة ذات طابع ديني.



الجدول رقم 8: توزيع فئات المتكلمين في الفقرات المتعلقة بالموضوع الديني-الاجتماعي (بعدد الأشخاص)

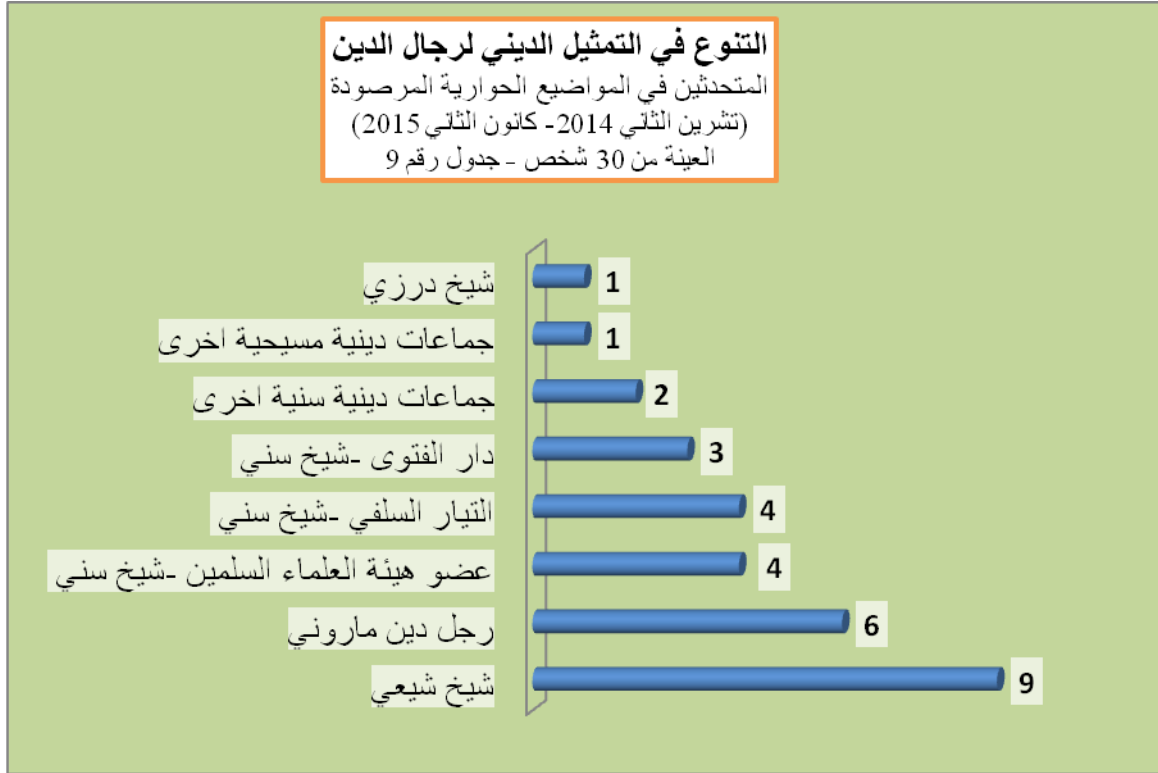
ب. التوزيع المذهبي والطائفي لرجال الدين

من ناحية أخرى، قمنا بتحديد الهوية المذهبية لرجال الدين الـ30 المتكلمين في البرامج الثلاثة المرصودة (الجدول رقم 9)، فلاحظنا وجود 7 رجال دين مسيحيين مقابل 23 رجل دين مسلم⁵. هذا التفاوت يمكن تبريره بصعود تيار (وخطاب) أصولي إسلامي في المنطقة وفي العالم يحتم التطرق إلى الموضوع الإسلامي بالدرجة الأولى (التحليل النوعي كفيلاً بإيضاح هذا التفاوت).

وبعد التدقيق في الهوية الطائفية لكل من الدينين الممثلين على المنابر، وجدنا أن رجال الدين المسيحيين السبعة هم بأكثريةهم الساحقة موارنة (6)، إضافة إلى متكلمة واحدة من طائفة مسيحية غير محددة (إلا أنها كانت تمثل الكنيسة المارونية في الموضوع المطروح)، في غياب تامّ لمتكلمين من طوائف مسيحية أخرى. أما إسلامياً، فتشكل رجال الدين الـ23 من أكثرية سنّية (13)، إضافة إلى 9 شيعة ودرزي واحد. وقد "فرض" علينا تعدد التيارات السنّية الممثلة في البرامج (واختلافاتها) أن نميز بين اتجاهات رجال الدين

5 تم احتساب رجل الدين الدرزي الوحيد مع هذه الفئة.

السنة الـ13، فتوزع هؤلاء بين: هيئة العلماء المسلمين (4)، التيار السلفي (4)، دار الفتوى (3)، إضافة إلى رجلي دين لم يتمّ تحديد توجّههما المذهبي.



الجدول رقم 9: التوزيع المذهبي والطائفي لرجال الدين

ج. توزيع المتكلمين بحسب الجنس

أما التفاوت الأكبر، فكان في توزيع المتكلمين وفقاً لجنسهم، حيث سيطر الذكور على منابر البرامج الثلاثة، متمثلين بـ49 شخصاً مقابل 11 شخصاً من الإناث (الجدول رقم 10). هذا التفاوت يعكس واقعاً محلياً ينحصر فيه دور المرأة في مجالات عديدة لأسباب مختلفة ومتعددة. وقد برز هذا التفاوت خاصة في التوزيع الجنسي لفئة "رجال الدين" (29 ذكراً مقابل أنثى واحدة)، والمعروف أن موقع المرأة في المؤسسات الدينية محدود أصلاً. هذا الأمر ينسحب أيضاً على تسمية هذه الفئة، فيقال "رجل دين" (وقد اعتمدناه نحن أيضاً نظراً لواقعيته). من ناحية أخرى، نلاحظ أن حضور المرأة الناقدة والمحللة كان خجولاً أيضاً (أنثى مقابل 5 ذكور)، في حين أن الحضور الأنثوي كان أكثر بروزاً كصاحبة علاقة (7 إناث مقابل 13 ذكراً) وكاختصاصية/خبيرة بغض النظر عن ضالة عدد المتكلمين (اثنتين مقابل اثنين).

توزيع الأشخاص المتكلمين وفقاً لجنسهم

في المواضيع الحوارية المرصودة
(تشرين الثاني 2014-كانون الثاني 2015)
العينة من 60 شخص مشارك - جدول رقم 10



الجدول رقم 10: توزيع الأشخاص المتكلمين وفقاً لجنسهم

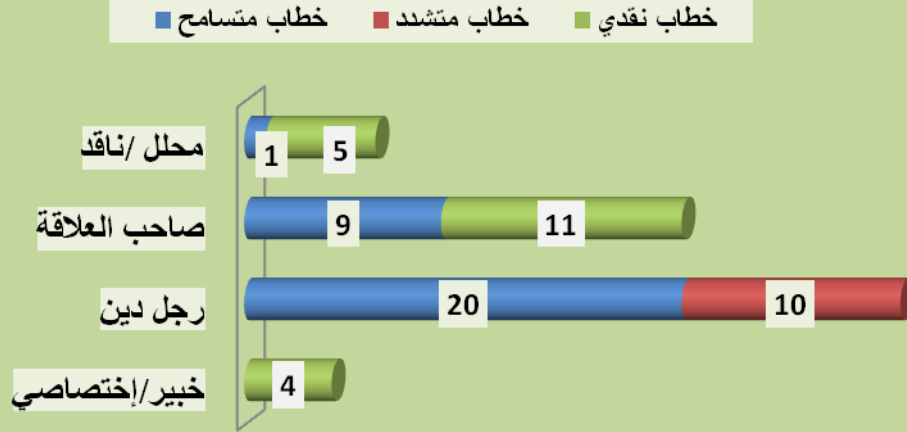
4- نوع الخطاب الديني

في خطوة أخرى من دراسة المؤشرات الكمية، قمنا بتحليل نوع الخطاب المعتمد من قبل المشاركين في الفقرات الحوارية التي تطرقت إلى مواضيع دينية. وتمثلت هذه الخطوة برصد المصطلحات والتعابير المستخدمة من قبل المتحدثين في البرامج كمؤشر لثلاثة أنواع من الخطاب الديني: خطاب ديني متشدد، خطاب ديني متسامح، خطاب ديني نقدي. وقد تم تصنيف كل خطاب من الخطابات الـ 60 مرة واحدة ضمن هذه الأنواع. وكانت النتيجة كالتالي: 30 خطاباً متسامحاً، 20 خطاباً نقدياً، 10 خطابات متشدة (الجدول رقم 11). وبعد قراءة النتائج التفصيلية لنوع الخطاب (المتعلقة بكل فئة من المتكلمين)، يمكننا استخلاص ما يلي:

- وجود خطاب نقدي لافت يتمتع به ممثلو المجتمع المدني، النقاد والخبراء.
- غياب أي خطاب متشدد أو يدعو إلى الكراهية لدى الشرائح ذاتها ("ناقد/محلل"، "صاحب علاقة"، "إختصاصي/خبير"). ويمكن اعتبار ذلك مؤشراً إيجابياً في مرحلة تشهد توترات سياسية ذات خلفية دينية.
- غياب أي خطاب نقدي لدى رجال الدين، لا بل وجود خطاب متشدد لدى تلك الشريحة حصراً، مع الأخذ بعين الاعتبار طبعاً وجود خطاب متسامح لدى النسبة الأكبر منهم.

نوع الخطاب المعتمد من قبل المتحدثين في الحوار

الارقام تشير الى عدد الخطاب
(تشرين الثاني 2014-كانون الثاني 2015)
العينة من مجموع 60 خطاب - جدول رقم 11



الجدول رقم 11: نوع الخطاب المعتمد من قبل الأشخاص المتكلمين

القسم الثاني: التحليل النوعي للمضمون

في المرحلة الثانية، قمنا بدراسة المضمون النوعي للفقرات الـ 21 التي تطرقت إلى الموضوع الديني ضمن البرامج الحوارية الثلاثة التي كنا قد حدّدناها ("النشر"، "طوني خليفة-1544"، "حكي جالس"). في هذا الإطار، اعتمدنا على المحاور السبعة التي رصدناها في المرحلة السابقة كوحدة سياق (unité de contexte). وهذه المحاور هي: التطرف الديني، الفتاوى الدينية، البدع والمعتقدات الدينية، زواج المثليين، ممارسة الشعائر والطقوس الدينية، السخرية من الأديان والفساد في المؤسسة الدينية. في كل من هذه المحاور، قمنا بتحليل السياق السياسي-الاجتماعي بهدف فهم وجهات نظر المتكلمين. وتركز اهتمامنا على معاينة نوع المتكلمين في كل فقرة ودورهم وتحليل ذلك، آخذين بعين الاعتبار جملة من الأمور المتعلقة بهم والتي تسهم في توضيح كيفية مقارنة البرنامج للموضوع الديني (ما هو عدد المتكلمين في كل فقرة وكيف تمّ اختيارهم؟ من وماذا يمثلون من المجتمع؟ كيف توزعت الأدوار في ما بينهم؟ ما كان مضمون خطابهم ونقاط الارتكاز فيه؟). كما تركّز اهتمامنا على الدور الذي لعبه مقدّم البرنامج في التعاطي مع الموضوع الديني وإدارته للفقرات، بالإضافة إلى مضمون خطابه (ما هي الإشكالية التي طرحها؟ كيف تعاطى مع المتكلمين؟ هل قام بإعطائهم حقّ الكلام بشكل منصف؟ كيف تصرف مع آرائهم أو علّق عليها؟ هل سوّق لمواقف دون أخرى؟ هل عبّر عن رأيه بشكل مباشر؟).

1- التطرف الديني

في محور "التطرف الديني"، عالجت فقرة من "حكي جالس" قضية أبو علي الشيشاني، وهو قائد مجموعة مسلحة متطرّفة تقاوم تحت لواء "جبهة النصرة" الذي تبنّى اختطاف مجموعة من الجنود اللبنانيين، فيما تناولت فقرة أخرى من البرنامج نفسه ظاهرة التطرف الديني من خلال أغنية شعبية متداولة. كما تطرقت فقرة من "النشر" إلى الظاهرة نفسها في طرابلس من زاوية دحضها. القضايا الثلاث مرتبطة بواقع أمني محليّ له صلة بالحرب الدائرة في سوريا وانعكاساتها في لبنان، ويلقي بظّله على الأجندة الإعلامية والسياسية.

أ. أبو علي الشيشاني: هاجس السبق الصحافي في القضايا الكبيرة

في فقرة عُرضت بتاريخ 2014/12/22 (مدتها 9 دقائق)، تطرّق برنامج "حكي جالس" إلى قضية أنس جركس المعروف بـ"أبو علي الشيشاني" المنتمي إلى تنظيم "جبهة النصرة" المسلّح. عرّف جو معلوف بالشيشاني بطريقة تعكس أهميته إضافة إلى الدور السلبيّ الذي يلعبه على الصعيد الوطني. فهو "الإرهابي"، وقائد متطرّف لمجموعة إرهابية لا يقل عدد عناصرها عن ثلاثين مسلّح، كان قد "هدّد بخطف نساء وأولاد عناصر من الجيش اللبناني ردّاً على اعتقال زوجته". أما جديد البرنامج، فهو

الوصول إلى محمد جركس، شقيق الشيشاني، "المهدّد بالقتل من جانب أخيه" والذي أكّد أن زوجته ليلي عبد الكريم النجّار مرتبطة بأخيه وبتنظيم "داعش" و"بتسهيل الأعمال الإرهابية في لبنان وفي سوريا".

التقرير (مدّته أقل من دقيقتين) أراد إضفاء نوع من الرهبة والهلع في برنامج قلّما يتناول مسائل مماثلة، فعرض مقتطفات من حديث محمد جركس مع مشاهد يظهر فيها الشيشاني وهو يوجّه تهديده إلى نساء وأطفال الجيش اللبناني. فيما جاء التعليق مبسّطاً لا يتناسب مع جدية الموضوع ("الذي يهدر دم أخاه يمكن أن يهدر دم كل الناس"؛ بنينا مع جركس صداقة حتّى دلّنا على مكان إقامته السريّ الجديد") محاولاً الإضاءة على "الخطر" على حياة فريق العمل "بحسب تحذيرات مخابرات الجيش". ويستمرّ هذا السرد البوليسي، ليظهر كيف التفتّ الفريق على هذا الخطر واستدّج محمد إلى "منطقة معزولة" لمقابلته (في الليل مع إضاءة خفيفة). وتنتهي المقابلة برسالة يوجهها جركس إلى أخيه بإطلاق سراح الجنود اللبنانيين المختطفين، ليتبعها رسالة هاتفية أراد جركس توجيهها، بعد أيام على المقابلة، إلى أمين عام "حزب الله" السيد حسن نصر الله، يقول فيها: "وضعي الأمنيّ دقيق، لم أكن أستطع البقاء معكم أكثر من وقت محدّد". هذا الرسالة تساهم أيضاً في تعزيز الجو البوليسي خاصة عندما يعلن جركس بأن ابنه قد خُطف ("من قبل جماعة الحزب")، وبأن محاولة لاختطافه هو قد تمّت أيضاً، وبأن "لديه معلومات لن يبوح بها إلا أمام السيد حسن".

وأكمل معلوف تحليله المبسّط عن أسباب نموّ التطرّف. فاعتبر أن "تنظيم الدولة الإسلامية" يجعل من شخص عادي وأقل من عادي أميراً وحاكماً، وهذا السبب "هو ما يجعل أمثال الشيشاني يتسلّطون، آخذين معهم الناس "المعترّة" والفقيرة المقتتعة بالصعود إلى الجنّة من خلال الأعمال التي يقومون بها". وختم بطريقة تعكس مجدداً إرادة فريق العمل الباحث عن سبق إعلامي، مشيراً إلى "المعلومات المهمّة [التي] قد تفيد الدولة".

ب. حكي جالس يتبنّى أغنية شعبية ضد التطرّف

من ناحية أخرى، تطرّق "حكي جالس" في فقرة عُرضت بتاريخ 2015/01/19 (مدّتها 14 دقيقة) إلى مسألة التطرّف الديني من خلال إلقاء الضوء على أغنية (عنوانها "عندو دقن") انتشرت مؤخراً على مواقع التواصل الاجتماعي كما على أثر الإذاعات المحليّة. الأغنية، كما عرّف بها التقرير (من دقيقتين ونصف)، تتناول "قصّة حبّ انتهت بعد التحاق الحبيب بـ"داعش"، قصّة واقعية يعايشها المجتمع اللبناني ويتخوّف منها بشكل يومي". واستضاف جو معلوف في الاستوديو صاحب الأغنية (كتابة وتلحيناً وغناءً) هاني عسّاف لكي "يشرّحاً" معاً كلمات الأغنية ومضمون الفيديو كليب، فدافع عنه بوجه الانتقادات التي طالته، متحدّثاً عن "عمق" الأغنية ومنتقداً من يرتكب "أعمالاً إجرامية باسم الدين". واتفق الاثنان على رفض التطرّف "بكلّ أشكاله"، وعلى أهمية مواجهته "بالكلمة".

ج. "لنشر" لدحض صورة التطرف الديني عن طرابلس

الفقرة الثالثة من محور "التطرف الديني"، والتي عُرضت بتاريخ 2014/11/10 (مدّتها 14 دقيقة)، بدأت استعراضية في حلقة هدفت إلى "تبييض" صورة طرابلس المتداولة في الاعلام والمرتبطة بالتطرف الديني. فتم في البداية تبادل الأدوار بين مقدّمة البرنامج والضيف (الشيخ بلال مؤاس) الذي افتتح الفقرة بطريق تسخر من ربط طرابلس بالتطرف الديني ("جايي من طرابلس لأحتلّ الاستوديو ولأكل كل الموجودين ولأمتصّ دماءهم"). ويعرّف الضيف عن نفسه بأنه "إسلامي من طرابلس" قبل أن يستقبل "ضيفته" ربما "التي ذهب إلى طرابلس لتبحث عن الإرهاب ولكنها لم تجده، ولكنها وجدت أشياء كثير مغايرة ويجب الإضاءة عليها".

ويأتي تعليق كركي التي تدخل إلى الاستوديو في سياق الامعان في نقل الصورة السلبية بهدف دحضها لاحقاً (-) "الشيخ بلال وسلفي في الاستوديو! هيدي بدها وراها 'يا ماما! -' -لماذا؟ -" لأن سلفي يعني خوف ورعب". ثم يبدأ الحديث عن "السلفي الكول" 'cool'، فيقدّم مؤاس نفسه على أنه كوميدي، معتبراً أن "أفضل الوصال هو الابتسامة والوجه البشوش". وتدخل معه كركي في حوار عن "الصورة النمطية للسلفي التي لا يشبهها" (ربط السلفيين بتنظيم "داعش"، شكل الذقن والشارب...)، ينطوي ضمناً على إظهار صورة أخرى عن السلفي. ولا تركز الفقرة على تلميح صورة السلفيين بقدر ما تركز على تلميح صورة مدينة طرابلس. فيعرض البرنامج تقريراً (مدّته 6 دقائق ونصف) بطلته ربما كركي نفسها وهي تقوم بجولة في المدينة تقابل خلالها رجال دين كما تستعرض آراء مواطنين تعكس صورة غير نمطية عن طرابلس. فيظهر في التقرير شيخان تتسم مواقفهما بالانفتاح والاعتدال، وهما سمتان يحرص البرنامج على الإضاءة عليهما في فقراته المتعلقة بالموضوع الديني. الشيخ نبيل رحيم، مدير العلاقات العامة في "إذاعة طريق الارتقاء"، يتحدّث عن "إرهاب مزعوم" في مدينة مسالمة، فيما يؤكد الشيخ وسام المصري، "أحد مشايخ طرابلس"، أنه "لا يوجد أي سلفي يفهم العقيدة السلفية الصحيحة، ويسير على النهج السلفي الصحيح، شارك بأية معركة من المعارك التي حصلت". ويصف ضحايا هذه المعارك بـ"الأبرياء من المدنيين الذين لا يحملون السلاح ومن جنود الجيش اللبناني".

2- الفتاوى الدينية

الفقرتان المتعلّقتان بمحور "الفتاوى الدينية" تطرقتا إلى مسألتين: المسألة الأولى هي موقف الدين من عملية قتل الذات في ساحة المعركة أكان ذلك لتجنّب الوقوع في الأسر أو لإيقاع خسائر لدى العدو، وقد طرحها برنامج "طوني خليفة-1544" في الحلقة التي عُرضت بتاريخ 2014/12/15، وجاءت في سياق سلوكيات تجري ضمن الحروب الدائرة في المنطقة ويتمّ الإضاءة عليها دائماً؛ أما المسألة الثانية، فتندرج في خانة انتشار الفتاوى الدينية في المرحلة الأخيرة وغرابة العديد منها. وفي هذا الإطار أضاءت فقرة من برنامج "لنشر" على الفتوى التي تحرّم الاحتفال بأعياد الآخرين، ليس على خلفية غرابتها، إنما انسجاماً

مع سياسية البرنامج الرفضية للظواهر التي لا تشجع أو ترفض مظاهر تعكس "العيش المشترك للبنانيين". كما أثار البرنامج في فقرة أخرى مسألة "الانتحاريين" وكيفية "غسل أدمغتهم" بشكل عام، ودور الفتاوى في ذلك.

أ. موقف الدين من العمليات الانتحارية: مغالطات كثيرة وإقحام الدين في كل شيء

حملت فقرة "طوني خليفة-1544" (مدتها 24 دقيقة) التي تناولت رأي الدين بالعمليات الانتحارية جملة من المغالطات في الشكل وفي المضمون. فالإشكالية التي طرحها طوني خليفة ("إذا قتل الانسان نفسه في ساحة المعركة منعاً للوقوع في الأسر بيد الأعداء، أو إذا فجر أحدهم نفسه في أعدائه، هل يُعتبر ذلك برأي الدين انتحار أم استشهاد؟") لا تجد إجابتها حصراً في الدين كما أراد الاعتبار، إذ أن الاستشهاد يتعلّق بالتضحية أو الموت في سبيل الدين. وهو بطرحه هذا يعتبر ضمناً أن الحروب الدائرة في المنطقة حالياً هي حروب دينية. من ناحية أخرى، أعطى للعمليات الانتحارية شرعية ما (أكان توصيفها "انتحارية" أم "استشهادية") كما أعطى للدين حصريّة البتّ بهذا الأمر (استخدم مراراً صيغة "هل يحقّ لفلان؟") منطلقاً من اعتبار أن "الأديان أجمعت على أن قتل الذات هو من أشدّ الكبائر وأبغضها، وهي التي تحدّد ما إذا كان الأمر استشهاداً أم انتحاراً وحراماً".

واللافت أن خليفة أضاء على الأمر من زاوية خلافية بين الطوائف، فتحدّث عن "مناظرة بين ثلاثة رجال دين، سنّي وشيعي ومسيحيّ، لنرى بنظر الأديان الثلاثة كيفية توصيف قتل النفس"، خالطاً بذلك، في مغالطة أخرى، بين الطائفة والدين باعتباره كل من الطائفتين الشيعية والسنية ديناً بحدّ ذاته. وكان مستغرباً دعوة خليفة المشاهدين "لتركيز على هذه الفقرة" (التي تمّ تسجيلها الأسبوع الفائت لضيق بسبب عدم القدرة على بثّها وقتذاك لضيق الوقت) لأنها "بالفعل فقرة رائعة وجميلة جداً"! أما التقرير (مدته دقيقة ونصف)، فقد طرح الإشكالية ذاتها من خلال عرض لمشاهد من أحداث تاريخية عن قادة "وضعوا حدّاً لحياتهم بأنفسهم" بدل الاستسلام. وركّز على الرواية المتناقلة عن المقاومة الكردية جيلان أوزالب ابنة الـ19 عاماً التي قاتلت في كوباني في أيلول الفائت. وهي "قرّرت ألاّ تسلّم نفسها وعرضها وكرامتها للدواعش، فاحتفظت برصاصة واحدة أنهت بها حياتها بنفسها"، كما جاء في التقرير.

النقاش إذاً دار حصراً بين رجال دين ثلاثة، الشيخ مالك جديدة، الرئيس السابق لـ"هيئة علماء المسلمين في لبنان" ورئيس "دائرة الأوقاف الإسلامية" في عكار، المفتي الجعفري الشيخ أحمد طالب، وهو "ضيف دائم للبرنامج" كما وصفه المقدّم، إضافة إلى الأب بشارة إيليا الأنطوني، وهو كاتب وباحث في الفلسفة واللاهوت ومدير "مدرسة الأنطونية" في المروج. وجاء النقاش دينياً اجتهادياً يعكس رؤية كل من الطوائف الثلاث إلى مسألة قتل النفس، وأين يعتبرها الدين أو الاجتهاد محلّلة وأين يعتبرها محرّمة، في صورة تذكّر بالسلطة التي تملكها الطوائف الثلاث الممثّلة في البرنامج في تحديد خيار المواطن، حتى في ما خصّ الأعمال الحربية.

ب. الاحتفال بأعياد المسيحيين: انتقاد الفتاوى التي لا تجيز مشاركة المسلمين بها

المسألة الثانية من محور "الفتاوى الدينية" أثارها برنامج "للنشر" بتاريخ 2015/01/05 في فقرة تخطت مدتها 38 دقيقة، وتناولت تحريم الاحتفال بأعياد الآخرين. مقدّمة كركي انتقدت ظاهرة انتشار الفتاوى على أنواعها، دون رفض المبدأ عموماً ("هناك فتاوى تقرب بين الناس وأخرى تحرّض الناس على بعضهم البعض") وطرحت إشكالية تتحاز ضد الفتوى الموضوع: "الفتوى المتعلقة بأعياد الآخرين، ما الحكم عليها؟ وماذا يقول الكلام المعتدل عنها؟". وجاء التقرير (مدته ثلاث دقائق) ليزيد من الصورة السلبية لتلك الفتاوى قبل التطرق إلى القضية الأساسية. فيبدأ بالحديث عن "فتاوى غريبة تقترح بالجملة وتستحضر المرأة بشكل أساسي"، عارضاً لجملة من الفتاوى الغربية في مضمونها ونطاقها، والمتعددة المصادر (مصر، السعودية، الأردن، الإمارات). ثم ينتهي بمقتطفات لخطاب متشدّد يقول إن "أعياد الكريسماس كلّها خرافة".

وبما أن الموضوع فقهي، غلبت الصفة الدينية على الحضور. وكان لافتاً وجود رأي متشدّد، مثله الدكتور هاني السباعي مدير "مركز المقريزي للدراسات التاريخية في لندن" (عبر الفيديو)، استخدمته (للرأي) مقدّمة البرنامج للتصويب عليه وللتسويق لآراء معتدلة مثلها من لبنان الشيخ علي الحسين "إمام وخطيب مسجد السلام". السباعي انتقد مظاهر عيد الميلاد "التي اعتبرها المسيحيون حتى العصور الوسطى، ثم البروتستانت، بدعة" واعتبر أن احتفال المسلمين به "حرام" و"من الكبائر". كما انتقد "النصارى الغربيون" الذين "أحدثوا الفتن بين السنّة والشيعّة" مشيراً إلى الحملات الصليبية التي "دمرت المسلمين". وكان موقف كركي واضحاً، منحازاً إلى "دين الاعتدال"، وذلك من خلال انتقادها المباشر لآراء السباعي الذي استنفر لمرات عديدة وسألها بسخرية إذا كانت هي "من يفتي" ("لماذا هذه الحملة على مظاهر مفرحة يمكن أن تلمّ الناس على بعضها البعض؟"، "روحية الدين الإسلامي استيعاب الآخرين ومحبتهم ومبادرتهم بالعطاء؟"، "هل ينفصنا تفرقة بعد؟؟!"; "كيف لك اعتبارها من الكبائر وفيها لمّ شمل ومحبة؟").

أما الشيخ علي الحسين، ممثل دار الإفتاء، فحاول في المرحلة الأولى تبني خطاب فقهي يقول بعدم جواز الاحتفال بأعياد الآخرين، "دون أن أكفر من يقوم بذلك". إلا أن مواقف كركي المنتقدة أيضاً ("لماذا؟ نحن [المسلمون] نحترم ميلاد السيد المسيح ونؤمن به!!"; "أليس بعض الكفير كفراً؟ لماذا نصادر أدوار ربنا؟"; "نحن في لبنان بحاجة لوّثام أكثر فأكثر فما الضرر في تبادل الاحتفال؟") وموقف السباعي المتشدّد، إضافة إلى الخطاب المنفتح للمشاركين عبر الهاتف، جعلت الحسين يعدّل من خطابه ليتحوّل إلى خطاب معارض لموقف السباعي، خاصة وأن الخلاف بينهما انتقل إلى مسألة الاحتفال بالأعياد الإسلامية كالمولد النبوي. ويقوم الحسين بمعايدة المسيحيين على الهواء متسائلاً "كم من الفتاوى خربت بيوتاً؟". نجحت إذاً مقدّمة البرنامج بتصويب الخطاب نحو انتقاد الفتوى، وهي لم تتوان عن تأييد مواقف الأب جوزف ضو (شارك عبر الهاتف) بحرارة، مثنيةً على كلامه "الملفت والمليء بالانفتاح"، "كلام يقابلكم بالمحبة فلماذا تفتنون جدالات للتفرقة؟"

وزادت مشاركة الشيخ صهيب حبلي (عبر الهاتف) في الجدل بين السباعي من جهة والحضور من جهة أخرى. وتبادل حبلي والسباعي التهم، فانتقد الأول الوهابية وتساءل "كيف يسلم المسيحيون من فتاويهم الشاذة التي تضرّ بالإسلام؟" لافتاً إلى أنه يشارك المسيحيين "بوضع حجر الأساس لكنائس". هذا الموقف نال إعجاب كركي التي رحّبت "بهذه الصورة الجميلة للإسلام التي ننتظرها كلنا". ولم تنس انتقاد "رجال الدين الذين يفرضون علينا أن نضع الحجاب عندما نستضيفهم"، في إشارة إلى السباعي، خاتمةً بأن "الأكثرية مع الآراء المعتدلة في حين أن الآراء المتطرّفة هي مهيمنة". هذه الاعتدال بحسب كركي يأتي إذاً من داخل الدين نفسه من خلال إصلاح ذاتي ("اختلاط الأديان في لبنان نعمة من الله؛ نحن نؤمن بإله واحد؛" "على العرب والمسلمين أن يكونوا صوت الاعتدال...").

ج. العمليات الانتحارية وغسل الأدمغة: البحث عن خطاب ديني معتدل

أما الفقرة المتعلقة بالعمليات الانتحارية والتي تناولها "النشر" بتاريخ 2015/01/19، فجاءت في سياق التفجير الانتحاري الذي جرى في مدينة طرابلس قبل أيام. هذا السياق أثار على مقاربة الضيوف للموضوع، فكانت المواقف سياسية مع أن الإشكالية التي طرحها البرنامج أرادت تناول الشقّ النفسي للانتحاري. هذه الإشكالية طرحها التقرير (مدّته دقيقتان ونصف) من خلال أسئلة ركّزت على عملية "غسل الدماغ" ("كيف يتمّ اقناع شباب لبنانيين بالقيام بعمليات انتحارية، وما هي الأساليب التي اعتمدت لجنيدهم؟ وهل ما يحكى عن تقنية غسل الأدمغة باتت حقيقة جلية؟ أم ضرباً من الخيال؟). وكان واضحاً من المصطلحات المستخدمة في التقرير (أظهر مشاهد امرأة تهاجم باكية من غرر بابنها وتحدّث عن "مجموعات إرهابية"؛ شباب تحوّلوا إلى دمي") ومن خطاب مقدّمة البرنامج الرفض التام لهذه الظاهرة، على الأقلّ عندما لا تستهدف "عدوّاً واضحاً غير مدنيّ".

أما المشاركون، فقد طغت عليه الصفة الدينية (رجلي دين) مع حضور محلّلة نفسية وأستاذة جامعية (الدكتورة رندا شليط) كان دورها مهمّشاً ومحدوداً في المدّة الزمنية وفي متابعة مقدّمة البرنامج لأفكارها. إذ أن البعد السياسي الآني للقضية (الموقف من الحرب في سوريا)، بالإضافة إلى الإطار الديني لها، هو الذي طغى على النقاش. فانحصر التبادل الكلامي بين الشيخ محسن شعبان، "إعلامي متخصص في الجماعات الإسلامية"، والشيخ صهيب حبلي، إمام وخطيب "مسجد سيدنا إبراهيم عليه السلام". وجاء خطاب حبلي معتدلاً بالنسبة لخطاب شعبان الذي اتسم بنوع من التطرف وأثار مقدّمة البرنامج. فالأول اعتبر أن "الإسلام والآيات القرآنية بريئة من هؤلاء الانتحاريين" متحدّثاً عن "غسل دماغ موجود كما حصل في صيدا" في إشارة إلى حالة الشيخ أحمد الأسير (ذكره بالاسم) "الذي كان الشيخ شعبان مسؤولاً إعلامياً لديه"، الأمر الذي جعل الجدل يحتدم من منطلق سياسي داخلي. وتحدّث عن الفارق بين "العمليات الاستشهادية لتحرير الأرض والعمليات الانتحارية لقتل أناس مدنيّين من البلد نفسه"، مرجحاً الأسباب إلى "تأثير البيئة والحالة النفسية للانتحاري إضافة إلى المغريات" ومنقداً "المواقف الخطيرة

لبعض خطباء المساجد". أما الشيخ محسن شعبان، فاعتبر أن الدين الإسلامي "يجيز العمليات الاستشهادية"، مخففاً من وطأة اتهام الذين يقدمون على عمليات مماثلة عازياً السبب إلى "تعرضهم للظلم". ثم أطلق العنان لموقف متشدد عندما سأله كركي "بماذا تفتي لو كان بإمكانك ذلك؟"، فأجاب بأن "أية عملية ضد بشار الأسد أو الحكومة العراقية أو الأميركيين أو العدو الصهيوني هي عملية مباركة".

هذه الطغيان السياسي-الديني همّش الرأي العلمي-النفسي، إذ بدت الدكتور شليطا مترددة أمام الشيوخين في مقاربة الظاهرة من منطلق نقدي يلغي الفرد باسم الجماعة. فتجنّبت مثلاً الإشارة إلى الإيديولوجيا الدينية، عندما اعتبرت أنه "أمام كل إيديولوجيا يدخل فيها عنصر المقدّس، أكانت سياسية أم غير ذلك، علينا أن نخاف من الخطر الذي يستتبع ذلك". وحال تركيز ريماء كركي على الحلّ من داخل الدين دون إعطاء الأهمية اللازمة لمواقف شليطا من حيث إعطائها المساحة الزمنية الكافية للتعبير عن آراءها أم من حيث التعقيب على تلك الآراء كما فعلت مع رجل الدين. وكان موقف مقدّمة البرنامج منحازاً طبعاً ضد منطق العمليات الانتحارية، فاننقدت استخدام الدين لغايات متطرّفة مماثلة ("هل هذا جهاد؟!")؛ "ألم توصلهم الفتاوى إلى هنا")، إلا أنها اعتبرت أن الحلّ يأتي من الدين نفسه، "الدين الحقيقي، المعتدل" بـ"مشايخه المثقفين" ("أليس كل انسان مؤمن بحق لديه مناعة؟")؛ "أين دور المشايخ المثقفين والمعتدلين؟ صوتكم ليس عالياً بما فيه الكفاية"). ثم كررت كركي الأفكار ذاتها في ختام الفقرة عن الحلّ: "الحلّ في صوت الضمير والدين الحقيقي وعمل رجال الدين المعتدلين المثقفين الذين يضيع صوتهم للأسف أمام صوت التطرف الموجود".

3- البدع والمعتقدات الدينية

تمحورت الفقرات الخمس التي تناولت بدعاً ومعتقدات دينية حول قضايا ومسائل متشعبة ومختلفة اختلفت أهدافها: قضية جورج كيوان ومسألة "الجن وإبليس"، وقد أثارها برنامج "للنشر"، مسألة "استغلال مزار مار الياس في عين سعادة" وقد أثارها برنامج "حكي جالس"، مسألة التقمص وظاهرة المعجزات والعجائب وقد أثارها برنامج "1544-طوني خليفة". وقد اختلفت طريقة التعاطي مع كل من القضايا الخمس.

أ. إبليس والجن: معتقدات شعبية خرافية للإثارة والجنس حاضر دائماً

إثارة موضوع إبليس والجنّ بالشكل الذي حصل ضمن فقرة "للنشر" عُرضت بتاريخ 2014/12/08 (مدتها حوالي 32 دقيقة) يطرح تساؤلات حول جدية تناول برامج "اجتماعية" مماثلة لمسائل تهّم المجتمع بالفعل. فتتعلق مقدمة البرنامج بالتسليم بوجود الجنّ دون أي مقاربة علمية ولو بالإشارة، إذ تبدأ فقرتها بـ"كيف تكون حياة الانسان الذي يلبسه جنّ؟ وكيف يمكنه التخلّص من هذا الأمر؟". ويولي هذه التساؤلات تقرير من حوالي 7 دقائق يسوّق لهذه المسألة من خلال عرض حالة الشاب حسن "الذي لبسه الجنّ" و"الذي أتى إلينا بنفسه ليقول إنه مسكون بالجنّ منذ فترة، الأمر الذي يحول دون ممارسة عمله كطبيب

أسنان". يُخبر حسن روايته في التقرير، كيف "كلمه إبليس" الذي "يكرهه كراهية شديدة" وقد "أكل منه ضربات في جميع أنحاء جسده"، ولكن "الضربات تكون من الداخل إلى الخارج، فلا تظهر أية آثار خارجية". كما يخبر أن "إبليس هدده بالضرب على عينيه عندما علم أنه سيأتي إلى البرنامج". وتساهم لغة التقرير الفصحى بإضفاء طابع الجدّية على الرواية، وفي السياق عينه، يُطرح تساؤل آخر بهدف لإثارة: "ماذا يمكن أن يحصل خاصة إذا كنّا فتيات؟".

وينتقل التقرير إلى زاوية أخرى مختلفة تماماً لطرح المسألة، فيدخل عنصر الجنس على الموضوع ليضفي مزيد من الإثارة. من "الضحية" حسن نصيح أمام "المتهم" شادي (يتمّ عرض مشاهد عنه مصوّرة خلّسة) الذي "وصلتنا شكاوى كثير عنه تقول إنه يستغلّ الفتيات لتحقيق رغباته الجنسية إضافة إلى ما يتقاضاه من مال". وتتداخل الخرافات مع العامل الجنسي، فيخبرنا التقرير أن شادي يُقنع الفتاة-الزبونة بأنها مسكونة وبأن الجنّ "ينام معها". ويترافق ذلك مع بثّ مشاهد تظهر شخصاً يصف نفسه بـ"دكتور في علم النفس" (يعالج بـ"الشرب" و"الرقوة") يتكلّم عن كيفية حصول "الاغتصاب" وكيفية "تحركّ الجنّ" داخل الفتاة بعد معاينتها، وكيفية مداواتها ("الجن في محالبك وعلى رحمك"؛ "بالدهن ينفرون من منطقة التسلّط"؛ "أكثر من جلسة للدهن في كافة أنحاء جسمك"). ويتتابع هذا المشهد الإيروتيكي مع محاولة الرجل إقناع الفتاة بنزع ملابسها بحجج مختلفة، ثم اقتراحه أن تفعل ذلك ممدّدة في غرفة نوم داخلية، عارضاً عليها ملابس أخرى "سكسي". وينتهي هذا المشهد الذي يستمرّ لأكثر من خمس دقائق بخلاف بين المرأة التي تريد الخروج فيما الرجل يصرّ على البقاء للمتابعة، مع ما يستتبع ذلك من حوار ("شو بك عم تسلّحني؟" "بديّ ألمسك"، "هيدي تاني مرّة بتوصلي لجواً وبترجعي بقولي لأ"). المفارقة أن بعض المشاهد المسجّلة خفيةً تضمنت تاريخاً هو على الأرجح تاريخ التسجيل، وهو يعود إلى شهر آذار من العام 2008، هذا بالإضافة إلى أن هذا القسم من التقرير لن يكون مرتبطاً مباشرةً بموضوع النقاش، ما يجعلنا نستخلص أن هدفه البحث الإثارة، طارحين مجدداً تساؤلات حول ماهية وجدّية طرح مواضيع مماثلة بالطريقة التي يطرحها البرنامج.

ويلى التقرير مناقشة للموضوع بحضور أربعة مشاركين يمثلون الأطراف التي يمكن أن تكون معنية بالموضوع (الطب، الدين، الجهة التي تدّعي المرض والجهة التي تدّعي شفاءه): الشيخ محمد على الحاج العاملي، مدير حوزة الإمام السجاد العلمية، حسن قبيسي، طبيب الأسنان الذي عرض التقرير حالته، فيديلا، "متوقّعة وعالمة روحانية تقول بقدرتها على انتزاع الجنّ من حسن" (هكذا تعرّف بها كركي)، إضافة إلى رانيا البوبو، "اختصاصية في علم النفس العيادي". وينطلق الحوار مسلماً بما ورد في التقرير، فيكون الجنّ/إبليس الحاضر الأبرز على لسان كركي دون أي تشكيك ظاهري بالروايات، فتطرح أسئلة على قبيسي تسلّم تماماً بروايته ("ماذا فعل لك؟"؛ "ماذا لا يريدك أن تأتي إلينا؟"؛ "متى ضربك؟"؛ "هل حصل معك حادث ما قبل أن يسكنك إبليس؟"؛ "هل هو الآن معنا؟"؛ "ماذا يقول لك؟"). كما تطرح مقدّمة

البرنامج على فيديلا "العالمية" أسئلة مماثلة ("كيف تشخصين حالته؟"; "هل هو مسكون فعلاً؟"; "ما الحل؟"; "ما الفرق بين الجنّ وإبليس؟"; "ما هو عدد الجلسات التي يحتاجها المريض؟"). ولا يزيد من سورياية المشهد سوى اتهام فيديلا "الجن اليهود بالسكن في حسن" ثم قيامها مباشرةً على الهواء، وبطلب من كركي المتحمّسة، بممارسة طقوسها التي من شأنها "إخراج الجنّ" من حسن (مع توقّر الأدوات اللازمة لذلك على المسرح واستمرار المشهد لأكثر من ست دقائق في الواجهة الأولى).

وبالانتقال إلى رجل الدين الشيخ العاملي، فيؤكد ذكر القرآن والأحاديث الشريفة للجنّ لناحية وجوده، إلا أنه لا يسلم بوجود اتصال أو تأثير "بين عالم البشر وعالم الجنّ". ويظهر الشيخ بموقع المشكك بروايات لا دليل عليها ملمحاً إلى احتمال "المرض النفسي" عند حسن، متهماً "معظم" من يتعاطى بـ"عالم الأرواح" بأنهم "دجالون ونصابون يبتزّون الناس على المستوى المالي والجنسي". ويذكّر بأن علماء الإسلام يحزّمون كل أنواع التبصير والتنجيم وضرب الكفّ وغيرها. تستغلّ كركي هذا الموقف، لإثارة جدل يستسيغه هذا النوع من البرامج، فتقاطع الشيخ متوجهة إلى فيديلا: "ما تعلقينه إذاً بحسب فضيلة الشيخ هو شيء محرّم". وينبري كل من الاثنين بالدفاع عن موقفه. كما تبحث مقدّمة البرنامج عن الاثارة خلال ممارسة فيديلا لطقوسها، فتتوجّه مراراً إلى الشيخ الذي بقي هادئاً بأسئلة وأفكار هدفها إثارة الانفعال ("كيف تسمح بهذا الشيء؟"; "إنهم يختبئون خلف الآيات القرآنية ويستعينون بكتاب الله لتسويق أمور مماثلة؟"; ما رأيناه كان مخيفاً!"), قبل ان تطلق إثارة أخرى حول "كيفية حماية الفتيات في حالات تشبه الحالة المعيبة التي عُرضت في التقرير" فتضع كما الشيخ هذه الأمور في إطار "حرف الأديان عن هدفها الأساسي" و"استغلال ضعف بعض الأشخاص"، مناشدين الدولة ورجال الدين التدخل. وتتخلّى كركي في نهاية الفقرة عن الصورة التي بدت بها في بداية البرنامج، والتي يبدو أن هدفها كان ينحصر بالبحث عن الإثارة عن الإثارة، فتوجّه نقداً قاسياً مباشرةً إلى كل من حسن وفيديلا، واصفة الأولى بـ"المريض" الذي "لديه ملف طبي" والذي "يرفض متابعة علاجه النفسي كما أخبرنا أهله" والثانية بـ"المستغلة التي تؤذي حسن".

وكان لافتاً تهميش دور اختصاصية علم النفس رانيا البويو، إذ توجّهت إليها مقدمة البرنامج مرّة واحدة فقط في نهاية الفقرة، معطية الأفضلية للرأي الديني. وكانت الوحيدة التي قاربت الموضوع كلياً من منطلق علمي نفسي واجتماعي (رجل الدين شاطرها هذا الرأي، إلا أنه أقر بوجود الجنّ من منطلق ديني)، مشيرة إلى عدم وجود الشيطان علمياً بل هو وليد مخيطة الانسان.

ب. قضية جورج كيوان: معارضة المؤسسة الدينية للدور الاعلامي

تناولت الإعلامية ربما كركي قضية بدعة جورج كيوان مع ضيفتها الأم أغنيس مريم الصليب، "منسقة فريق العمل للسهر على الحياة الروحية والتعبّات الشعبية" في حلقة "للنشر" عُرضت بتاريخ 2014/11/10 (مدتها حوالي 21 دقيقة). وسبق الحوار تقريراً من ثلاث دقائق ونصف حول الموضوع،

فيما شاركت عبر الهاتف السيدة هيلين سامية (سبع دقائق)، إحدى ضحايا كفوري، والتي تتهمه باستغلالها واغتصابها. التقرير (مدته ثلاث دقائق ونصف) أضاء على ادعاء كيوان للقداسة وعلى كيفية تحصيله "لثروة مادية" خلال "30 سنة من غسل الأدمغة"، أصبح لديه خلالها "آلاف من الأتباع" ومنهم "بعض الرهبان الذين يطلبون بركته وشفاعته ويقبلون يده". وشدد التقرير على "استغلاله لبعض النساء اللواتي يتودد إليهنّ وأحياناً يتحرّش بهنّ"، حتى جاءت هيلين "لتفضحه". إلا أن التقرير لا يغفل الإضاءة على "معارضة الكنيسة" لظاهرة كيوان "وتحذيرها للرهبان الذين لا يزالون على تواصل معه يكملون مسيرته بالخفاء". هذا الحرص على المؤسسة الدينية ينعكس أيضاً من خلال حضور الأم أغنس التي تمثل الكنيسة في متابعة الموضوع.

حاولت كركي الإضاءة على النتائج السلبية لتلك البدع على الأفراد، فانقدت "رجل الدين الفاسد" و"كل من يستغلّ الدين للفساد" لأن "أبشع أنواع الفساد هو الذي له قناع ديني"، ولكن دون التشكيك بالمؤسسة الدينية ومن منطلق يحرص على صورة الدين باعتباره "أمل الناس" و"حضننا جميعاً". في المقابل، كان موقف الأم أغنس متشدداً منذ البداية، إذ اعتبرت أن الترويج للحلقة "يمسّ بقدسية الكنيسة والقديسين"، وأن الموضوع يجب أن يُحلّ داخل الكنيسة باعتباره "قضية روحية قبل أن تكون اجتماعية"،

هذا التعارض بدا جلياً على مدار الفقرة: كركي حاولت اثبات البُعد الاجتماعي لهذه القضية وشرعية تناول الاعلام لها، دون المسّ بدور الدين كمؤسسة، والراهبة التي، بدلاً من الاعتراف بخلل ما، حاولت استخدام أساليب عديدة لحصر الأضرار. الأولى عادت وانتقدت "من يستغلّ الناس أو يُسكتهم باسم الدين" و"المفسدين باسم الدين"، أما الضيفة، وللتخفيف من وقع الحادثة، لجأت تارة إلى التعميم ("لا ننسى أنها ليست ظاهرة وحيدة فريدة من نوعها هناك ظواهر كثيرة مثلها")، وتارة إلى حصر الجهة المخوّلة بالمحاسبة بالكنيسة ("هذه القضية يجب أن تُحلّ على صعيد كنسي لأن الظاهرة هي روحية كنسية") واعتبار التدابير التي تقوم بها "كافية"، وطوراً إلى الإضاءة على المسؤولية الفردية للضحية ("الإيمان المسيحي يتميّز بحرية الاختيار ولا يفرض شيئاً على أحد، لا بالخير ولا بالشر").

ولكن إصرار الإعلامية على "خطورة الأمر" الذي ينتج عنه "استغلال للناس جسدياً ومالياً" دفع بالضيفة في مرحلة ثانية إلى الإقرار ضمناً بدور الاعلام (شكر الإعلامية عادة عيد "لترحها هذه الظاهرة وإنقاذ إيلين من المصيبة التي حلّت بها")، مسلطة الضوء على دور اللجنة الروحية التي تمثلها في متابعة القضية "بتكليف من المطران". ولكنّها في الوقت نفسه تابعت في تبرير ما حصل بالوقت الذي تتطلبه دراسة الموضوع كنسياً: "المدة اللازمة لظواهر مماثلة حصلت في السابق تراوحت بين 10 و 15 سنة". وأمام إصرار الإعلامية على "ضرورة أن يكون التحرك سريعاً" باعتبار المدّة طويلة ("10 سنوات من عمر انسان مسجون في مأساة، وحيداً، هي مدة طويلة")، عاد جوهر الخلاف إلى الواجهة: الراهبة ترفض الاتهام ("لأن الكنيسة أخذت الأمر على عاتقها" و"لم تكن غائبة") وتريد سحب الموضوع من التداول

الإعلامي ("كي لا نثير الهلع")، فيما تصرّ الإعلامية على موقفها "لحماية الناس" و"لحماية الدين أولاً". ويأتي رد ممثلة المؤسسة الدينية، الذي تنتهي به الفقرة، ليعكس مرة أخرى معارضة المؤسسة الدينية للدور الرقابي الذي يقوم به الإعلام: "انشأه تحموا الدين" (ترافقت الجملة مع ضحكة عالية).

أما "الضحية" هيلين سامية، فرفضت توجيه أي انتقاد للمؤسسة الدينية ("أنا ابنة الكنيسة، ولجأت إليها؛" "الكنيسة هي مرجعي") فكانت متحفظة عن البوح بخفايا القصة، والتي أصرت كركي على سؤالها عنها، باحثةً دون تجاوب من سامية عن أي عنصر يمكن أن يضيف جديداً على القصة المتداولة ("هل طال الاستغلال نساء أخريات؟"; "من هي المراجع التي يهدّون بها زوجك وعائلتك كي لا يقفوا إلى جانب روايتك؟"). وعندما أجابت عن سؤال يتعلّق بهوية المراجع النافذة التي يهدّون بها، "أشخاص منتمون للسلك العسكري، ولأحزاب..."، قاطعتها مقدّمة البرنامج لتغيّر الموضوع، الأمر يعكس برأينا حدود إطار تعاطي برنامج مماثل مع قضايا بهذه الحساسية.

ج. مزار مار الياس في عين سعادة: إدانة الاستغلال المادّي الفردي للدين

الفقرة الثالثة والأخيرة في محور "البدع والمعتقدات الدينية" جاءت ضمن برنامج "حكي جالس" (مدّتها 11 دقيقة) بتاريخ 2014/11/10. وهي تناولت قضية مزار مار الياس في عين سعادة حيث يتمّ "استغلال اسم مار الياس لمدة 50 سنة دون أي تدخّل للمراجع الكنسية" (تأسس المزار على أساس أن تقوم التبرّعات بتغطية بناء مستشفى تمّ إنشاؤه ابتداءً من العام 1965 على عقارات تعود للوقف الأرثوذكسي، ثم توقّف المشروع منذ حوالي 15 سنة دون أن يُقفل باب التبرّعات. وهي تعود اليوم إلى ابنة المؤسس). المقاربة جاءت لنتنقد "الاستغلال المادّي أو التجارة باسم الدين" دون المسّ بجوهره وهو "الموضوع الأهم لدى المواطنين". ومع أن جو معلوف افتتح الفقرة بقوله إن "الدين هو أفيون الشعوب"، إلا أن المعنى الذي قصده لم يكن المعنى الماركسي الأساسي لهذه العبارة، بل "لأن التأثير الروحي الكبير الذي يخلقه الدين لدى الناس ليس له مثيل في الحياة". إلا أنه لم يتردّد في الإضاءة على المنحى السلبي لهذا التأثير: "لا مثيل للدين في قدرته على تحريك العواطف والغرائز والانفعالات عند الناس".

التقرير (مدّته ثلاث دقائق ونصف) اعرض لواقع القضية من زاوية التجارة المربحة بالدين وهي ذات "الرأسمال البسيط، بخور وتمائيل قديسين وشموع". الصور في التقرير أضاءت على أدوات العبادة تلك من زاوية إمكانية استخدامها للاستغلال ("مزار من نوع ثانٍ")، فجاء الطرح مدافعاً عن المؤسسة الدينية الشرعية (يظهر التقرير رسائل رسمية لمسؤولين في الكنيسة الأرثوذكسية موجّهة إلى البلدية يعتبر المزار خارج إطار الديني الشرعي) منتقداً الاستغلال الذي قد يصيب المواطن باسمها ("وقد سبق وتم استغلال الدين لأهداف شخصية وسياسية"، كما جاء في التقرير)، وهو الذي "يشكّل إيمانه نقطة ضعفه" و"يخاف أن يشكّك بما يراه أو يسمعه لأن الموضوع متعلّق بالله".

وكان لافتاً استقبال الأب عبدو أبو كسم، رئيس المركز الكاثوليكي للإعلام، للنقاش حول الموضوع. فإضافة إلى آرائه المحافظة لا بل المتشدّدة، لا يمثّل أبو كسم المرجعية الدينية المسؤولة عن المزار (الذي يعود للروم الأرثوذكس)، إلاّ أنه يثبت ما قلناه عن مقاربة البرنامج المؤيدة للدين ولمراجعته، والمنتقدة لبعض الشوائب. فأبو كسم لم يقمّ أي جديد سوى التسويق للمرجعية الدينية الشرعية، فاعتبر أنه "لا يجوز استغلال أي مزار لمكاسب تجارية" مشيداً ب"الشروط والضوابط التي تضعها الكنيسة المارونية لإنشاء المزارات". وتطرّق إلى ما وُصف ب"الشعوذة" التي تتمّ في المزار، وهي كناية عن "شريط مار الياس يُعطى للمؤمنين لاستخدامه بهدف الشفاء من أمراض"، فاعتبر أبو كسم أن "الشفاء يتمّ بشفاة القديس، بقوة الإيمان، دون الحاجة إلى وسائل مادّية"، معتبراً أن "هذه الشفاءات يثبتها الطب". هذا الخطاب الديني تبنّاه مقدّم البرنامج، واصفاً ضيفه بأنه "مرجع لنا في هذه الأمور".

د. التقمّص: الإثارة في قمّتها

ظاهرة التقمّص من المسائل الجدلية التي لا يمكن لطرحها إلاّ إثارة اهتمام المشاهدين، خاصة في الطريقة التي تناولها طوني خليفة ضمن فقرة من برنامجه عُرضت بتاريخ 2014/11/10 (مدّتها 20 دقيقة). فمن دون مقدّمات، تحدّث خليفة عن شخصان "نطقاً وأخيراً عن حياتهما السابقة، وتعرّف كلّ منهما على من كان سابقاً أمّه وزوجته وأولاده، وحتى على من قتله". وجاء التقرير (مدّته 4 دقائق ونصف) الذي يذكّر بأن التقمّص "تؤمن به الطائفة الدرزية"، ليزيد من هالة الغموض والإثارة واللغز (نصاً ومشهداً ومؤثرات)، ناهيك عن إضافة عنصر مثير آخر على الرواية، وهو الحرب الأهلية اللبنانية. كما يعرض حالة فراس الحلبي الذي تحدّث عن "حياته السابقة قبل أن يُقتل عام 1976 على يد شخص يُدعى حنّاً". وجاءت شهادة والدته فراس، ولقاؤه ابن عصام سعيد، الذي يدّعي فراس أنه كان هو، لتضفي على الرواية مزيداً من الواقعية والإثارة. وكذلك فعل التقرير برواية رامي بو حمدان، "الذي لا يزال يحمل في بطنه أثر الرصاصة التي أصيب بها في حياته السابقة".

وفيما خلّص التقرير إلى "لغز التقمّص الذي تُطرح حوله أسئلة كثيرة"، كانت واضحة رغبة البرنامج بعدم استقبال أي طرف يمكن أن يدحض روايات الشابين. فاكتفى باستضافة بو حمدان إضافة إلى القاضي مرسل نصر، الرئيس السابق لقضاة الموحّدين الدروز. وعرّف خليفة بالأول متبنيّاً روايته سائلاً إياه عن تفاصيل حياته السابقة ("ألا تريد رؤية زوجتك وأولادك؟ لماذا؟"، "ماذا رأيت عند موتك؟"، "هل ترغب أن نذهب وإياك عند عائلتك السابقة؟")، إذ كان "يقوم بتهريب عائلة مسيحية لمنطقة أمانة عندما أطلق عليه النار حاجز أمني" (الحرب الأهلية مجدداً). ويوجّه خليفة الأسئلة للشيخ انطلاقاً من تبنّيه واقعية الرواية أيضاً ("كيف تفسّر خوفه من رؤية عائلته السابقة؟")، فيما يقوم القاضي بتفسير التقمّص من منطلق فقهي ديني، مستنداً على أمثلة عند المسيحيين الأوائل، معتبراً أن العاهات الجسدية والمشاكل الاجتماعية عند الإنسان "إنّما بعضها نتيجة أعماله في حياة سابقة بحسب أصحاب نظرية التقمّص". وتنتهي الفقرة بمشهد

سوريالي إذ يقوم خليفة بإطلاق نداء إلى عائلة بو حمدان السابقة (مسمىاً الزوجة والأولاد، علماً بأنه لا يعرف اسم شهرتهم، من منطقة المشرفة)، في حال تمكّنت من التعرّف على روايته، الاتصال بالبرنامج!

هـ. المعجزات والعجائب: الرواية الدينية حصراً والاختلاف الإسلامي-المسيحي للإثارة

الفقرة الخامسة في محور "البدع والمعتقدات الدينية" المتعلقة بالمعجزات والعجائب (مدتها حوالي 39 دقيقة)، والتي تناولها أيضاً برنامج "طوني خليفة-1544" بتاريخ 2015/01/05، جاءت مقاربتها مشابهة لمقاربة مسألة التقمّص. فطرح هذه المسألة جاء بمناسبة عيد الميلاد لدى الطوائف الأرمنية، عيد الغطاس لدى الطوائف الكاثوليكية، وعيد المولد النبوي لدى الطوائف الإسلامية كما أعلن مقدّم البرنامج. هذا الربط أظهر منذ البداية رغبة البرنامج بتبني الرواية الدينية المتعلقة بالمعجزات والعجائب، إذ أراد استعراضها عبر التاريخ، معتبراً أن "معظمها تمّ توثيقه طبيّاً". وتكتمل صورة تبني الرواية الدينية عندما يشير إلى وجود "أطراف ترفض الاعتراف بهذه الظاهرة، لأنها تعتبر أن الله وحده، دون أي وسيط، قادرٌ على اجترار العجائب والمعجزات"، ملغياً بذلك وجود جهات ترفض الظاهرة من منطلق علمي أو لاديني.

وبعيداً عن المضمون، يبحث خليفة عن الإثارة في الشكل عندما يعلن بدايةً عن "مناظرة إسلامية-مسيحية حول الموضوع" (المقاربة الخلافية دائماً). التقرير (مدته أكثر من 6 دقائق ونصف، وهو بالتالي أطول تقارير دراستنا) الذي يصف لبنان بـ"بلد القديسين"، ينطلق، على وقع تراتيل دينية، من تسليمه بمعجزات القديسين، عارضاً لشهادات أشخاص "من طوائف وجنسيات مختلفة. ويركّز على حالة السيدة نهاد الشامي "اللي عملها القديس شربل عملية برقبتها وشفاهها من مرض الشلل"، كما على حالة ليال جبرائيل "التي نالت بركة هذا القديس" بعد إصابتها بمرض السرطان، والتي حظيت بـ"نعمة الشفاء" منه بـ"قدرة إلهية تتخطى حدود الطبّ، هي الوحيدة التي بإمكانها أن تشفيها" (مع عرض لروايتها). ثم ينتقل التقرير إلى موضوع المعجزات عند الطائفة الشيعية، فيتكلم عن حالات معجزات للسيدة زينب، عارضاً لحالة دياب الذي كان "أبكم وأصمّ حتى عمر ثلاث سنوات عندما ظهرت عليه السيدة زينب".

النقاش داخل الاستوديو جرى إذاً بين ممثلين للإسلام وللمسيحية: المفتي الجعفري الشيخ أحمد طالب، الشيخ أحمد إسماعيل (باحث ومدرّس في الحوزة العلمية)، وعبر الفيديو من منطقة عتّايا (رمزية المكان تُسهم في تأييد الرواية الدينية) "قيّم دير مار مارون ومسجّل عجائب القديس شربل" الأب لويس مطر. وكان لافتاً غياب أي ممثل للمجتمع العلمي أو الطيّ وقد تمّ ذكر الطبّ تكراراً في الحديث عن المسألة، وكذلك غياب الرأي السنّي (انطلاقاً من توصيف طوني خليفة أعلاه) كما الرأي المسيحي غير الماروني. وقد أجمعت آراء المشاركين طبعاً على "إمكانية حصول العجائب والمعجزات كما نصّت الأديان"، وكان اختلاف حول مصدرها، وذلك من ضمن الرواية الدينية. فطالب انتقد "استسهال الادّعاء" بحصول الأمر وتحفّظ عن قدرة البشر على شفاء بشر، "إلا من أعطاه الله الإذن بذلك"، دون نفي البعد النفسي للأمر، فيما ركّز مطر على "عجائب مار شربل الـ72 التي طالت أشخاصاً من كلّ الأديان" و"أجرى القديس لعدد

منهم عمليات جراحية". أما إسماعيل، فكان لافتاً انتقاده لحياة اللهو و"خليّ الجوّ ولعان" (في إشارة إلى حملة إعلانية شبابية لمشروب).

وقد كان واضحاً التنبّي التام من قِبَل مقدّم البرنامج لهذه الرواية الدينية (المسيحية خاصّة) ولمصطلحاتها ("القديسون الذين التقاهم الله وأعطاهم هذه النعمة"؛ "لماذا نحتاج إلى وسيط مع الله كي نصل إلى النعمة؟"؛ "كيف يمكنك التشكيك وهناك حالة مرضية قد شُفيت؟"). ويتوجّه بموقفه باتجاه الشيخ طالب المتحفّظ عن العجائب بوسائل مادّية، محاولاً إقناعه: "أعجوبة السيدة نهاد الشامي لا يمكن إنكارها فقد أجرى لها مار شريل عملية جراحية من الوريد إلى الوريد"، ويضيف بإصرار: "الرب يهيّن لك الموضوع من خلال ترك أثر مادّي للأعجوبة"، "هناك وضع مادّي لا يمكنك الابتعاد عنه وإنكاره!"; "أنا شخصياً أوّمن وأؤمن وأؤمن بالعجائب". نشير أخيراً إلى تركيز خليفة على رصد رأي كل رجل دين بالمعجزات التي يتحدّث عنها الدين الآخر.

4-زواج المثليين جنسياً: الرأي الديني السلبي في الواجهة

مع أن هذه المسألة لا تندرج ضمن الموضوع الديني، إلا أن إقحامه هنا كان بسبب مشاركة رجل دين في فقرة (مدّتها 30 دقيقة) تناولت زواج المثليين ضمن حلقة من برنامج "للنشر" تمّ بثها بتاريخ 2014/12/15. وكان النقاش حول المثليين وحقوقهم (ومنها حقّ الارتباط) بحضور الصحافي والناقد بيار أبي صعب، نائب رئيس تحرير جريد "الأخبار"، الشيخ علي يوسف، عضو "هيئة علماء المسلمين في لبنان"، إضافة إلى شابين مثليين، محمّد وقيس أو جينيفر، عرضا لقصتهما في التقرير كما في الاستوديو. ولن نتناول في تحليلنا إلا ما يتعلّق بالرأي الديني. ويمكن القول بدايةً أن إقحام الرأي الديني في هذه المسألة يصبّ حتماً في خانة الموقف السلبي منها، ولو أن حضور بيار أبي صعب ومواقفه الليبرالية الحقوقية والمدنية أعادت بعض التوازن للنقاش. فالشيخ يوسف وصف المثليين بـ"الحالات الشاذة" و"المرضى"، واعتبر أن الزواج هو "رابط ديني مقدّس يتمّ بين ذكر وأنثى"، متهماً المثليين الذي يطالبون بالزواج بـ"هدم المجتمع" و"إفساده". ووصف الزواج المماثل بـ"الفاحشة" و"الرزيلة" منتقداً "الترويج لتلك الظاهرة". وتجنّب طيلة الحلقة النظر إلى الشابين الذين كانا يوجهان الحديث إليه، قائلاً إنه كان يتساءل عن "إمكانية وجود أمثالهما" طالباً "وضعهما في مصحّح". لا بل ذهب إلى الإعلان أن عقوبة المثلية في الدين "تصل إلى حدّ القتل".

واتسمت مواقف كركي بالحيادية تجاه الموضوع، فرفضت مثلاً الإجابة عن سؤال إذا كانت تؤيد الزواج المثليّ أم لا. ومع أن بعض مصطلحاتها مستمدّة من المعجم الديني ("البعض يعتبر أنها خطيئة إذا شجعنا عليها، البعض الآخر يعتبر أيضا إنها خطيئة بحق المجتمع"، فيما آخرون يرون فيها حرّية)، إلا أنها دافعت عن حقّ الخيار الفردي، وعن حقّ المجتمع والاعلام بالنقاش حول المسألة، دون تمييز، لا بل وجّهت بعض النقد لمواقف رجل الدين المتشدّد.

5- ممارسة الشعائر الدينية

تمحورت الفقرات الثلاث المتعلقة بالشعائر الدينية حول ثلاث قضايا مختلفة. الفقرة الأولى تناولت الخلاف حول تمثيل سيرة الأنبياء تناولها برنامج "حكي جالس"، وهي عكست الجدل الديني الدائر حول فيلم إيراني قيد الانتاج يجسد النبي محمد. كما أثار البرنامج عينه في فقرة أخرى مسألة تم تداولها على مواقع التواصل الاجتماعي تتعلّق بالاختلاف في تحديد مواقيت الصلاة عند الطوائف الإسلامية. وأضاءت الفقرة الثالثة على قضية أخرى أكثر إثارة ومشهدة تتناول إحياء عائلة لبنانية مسيحية لطقوس عاشوراء.

أ. تمثيل سيرة النبي محمد: الخلاف السني-الشيوعي في الواجهة

طرحت فقرة من "حكي جالس" (عُرِضت بتاريخ 2014/12/01 ومدّتها 19 دقيقة) قضية الفيلم الإيراني الانتاج الذي يجسد طفولة النبي محمد والذي يقوم بإخراجه حالياً الإيراني مجيد مجيدي. تناول البرنامج المسألة من زاوية خلافية بحتة "بين السنة والشيعة"، فذكر مقدّمه بدايةً بـ"الخلاف التاريخي بين المراجع السنية والمراجع الشيعية حول تجسيد الشخصيات الدينية". وكذلك فعل التقرير (مدته دقيقتان وربع) حين أضاء على موقف مفتي جبل لبنان محمد علي الجوزو من الفيلم حيث اعتبر فيه أن "قيام شخص إيراني بتمثيل دور رسول الله هو إهانة للمسلمين". واستبق التقرير عرض الفيلم متسائلاً عن احتمال "منع عرض الفيلم في لبنان" كما عن "حصول مظاهرات وأعمال عنف (في العالم الإسلامي)" بحيث يصبح الفيلم "إدانة للمسلمين نظراً لحساسية الموضوع".

هذا الفرز التام السليبي بين سنّة وشيعة (علماً أن هناك تيارات سنية تجيز تجسيد الأنبياء وتيارات شيعية تحرّمه) استمرّ من خلال الإشكالية التي طرّحت في الحوار ومن خلال اختيار الضيوف المكوّنين حصراً من رجال الدين والذين يمثلون الطوائف الثلاث الكبرى في لبنان: الشيخ ياسر عودة عضو "الهيئة الشرعية في مكتب المرجع الراحل السيد محمد حسين فضل الله" عن الشيعة، الأب عبدو أبو كسم رئيس "المركز الكاثوليكي للإعلام" عن الموارنة (علماً أن موضوع الحلقة لا يتناوله مباشرة، ولكن حضوره يكمل المشهد الطائفي)، والمفتي الجوزو نفسه عن السنّة. إلّا أن الجوزو اعتذر عن الحضور بحسب مقدّم البرنامج "بسبب وعكة صحية"، ما أفقد البرنامج إثارة تلفزيونية يطمح إليها، فشارك مكانه عبر الفيديو الشيخ هشام خليفة مدير عام الأوقاف الإسلامية. الحوار كان فقهيّاً دينياً تركّز حول مصادر التشريع الإسلامي وموقع مبدأ تجسيد الأنبياء منها. وبدا واضحاً من خلال تدخلات جو معلوف أنه يريد إضفاء جو من الإثارة على أساس الفرز الطائفي الثنائي ("إذا أنت نخالف الشيخ هشام؛" "لماذا تختلف مع الشيخ هشام؟"؛ "أفهم منك شيخ هشام أنكم ستمنعون الفيلم؟"؛ "بلى شيخ ياسر، هناك خلاف سنّي-شيعي يجب إعطاؤه حجمه"؛ "الشيخ هشام يقول 'سنمنع'، فماذا ستفعلون أنتم؟" وكرّرها معلوف مراراً أمام الشيخ عودة الذي أصرّ على "التحدّث بطريقة علمية" وعلى أنه لا يملك "سلطة للسماح بعرض الفيلم أو لمنعه".

وقد انعكس المنطق المحافظ والرافض للتعددية الفكرية في آراء كل من هشام خليفة وعبدو أبو كسم. فالأول اعتبر أن "كنا بغنى عن إثارة مشكلة جديدة في المرحلة الحالية التي تشهد خلافات كثيرة بين السنة والشيعة". أما الثاني، فقال إن كل ما يخالف العقيدة في الأفلام "نحن نوقفه"، و"نحن ككنيسة من يحدّد المعايير"، كما أقرّ بأن الأمن العام يرسل "لمركز الكاثوليكي للإعلام" الأفلام لمراقبتها فيما "ترفض الفيلم أو نحذف المشاهد التي لا نوافق عليها وإمّا نقول له 'مشي'". وشرح لماذا "أوقفنا الفيلم الإيراني عن السيد المسيح"، مع تسليمه بأن "نظرة المسلمين إليه تختلف عن نظرتنا"، فراضاً وجهة نظر الفريق الذي يمثّله: "إمّا تستمرّون بالرواية (المسيحية) حتى النهاية، وإمّا سنعترض".

ب. الاختلاف في مواعيد الصلاة: استخدام قضايا هامشية للإثارة

في فقرة من برنامج "حكي جالس" عُرضت بتاريخ 2014/11/17 (مدّتها 24 دقيقة)، تطرّق جو معلوف إلى مسألة اختلاف مواعيد الصلاة لدى الطوائف الإسلامية. طرح الفكرة بالطريقة التي تمّت نُظَر مديّ توّسل البرنامج للإثارة، خاصة لدى تناولها مواضيع دينية والتحدّث عن "البلبلة" التي أثارها هذا الموضوع أو ذاك بحجّة "كثرة تداوله على مواقع التواصل الاجتماعي". فبهدف إضفاء الطابع الطارئ على الموضوع، يبدأ جو معلوف بتذكير المشاهدين بأن "الصلاة عند المسلم المؤمن لها مكانة كبيرة لا تصل إليها أية عبادة أخرى، وهي الركن الثاني من أركان الدين" ويأّن "أول ما يتمّ محاسبة المؤمن المسلم عليه هو صلاح صلاته أو فسادها". ويكمل معلوف بـ"ضرورة أن يتم تأدية الصلوات الخمس في الأوقات المحدّدة، وهي أوقات تختلف بين الطائفتين السنية والشيعة" (دائماً التركيز على التباينات داخل هذه الثنائية). ثم يأتي طرح فكرة الفقرة التي تتناول "نتيجة بحث جديد انتشر في الآونة الأخيرة وهزّ الأوساط الإسلامية في مصر وفي العالم العربي" بحسب توصيف مقدّم البرنامج، ومفادها أن "المسلمين يصلّون الفجر بغير مواعده منذ مئة عام". الفكرة يكرّرها التقرير (مدّته 4 دقائق ونصف ترد فيه مقتطفات متفرقة منها مقطع لخطبة أحد رجال الدين حول صلاة الفجر وأهمية توقيته وفق ما جاء على لسان النبي محمّد) مرتكزاً على "حقيقة جديدة فجّرها منذ أسبوع الإعلامى المصرى أحمد المسلمانى" مقدّم برنامج "صوت القاهرة" (بثّ التقرير أيضاً مقاطع من برنامجه)، استناداً إلى دراسة أجراها باحث في قسم الشمس والفضاء في المعهد القومى للبحوث الفلكية والجيوفيزيقية، محدداً خطأ زمنياً بفارق يصل إلى النصف ساعة.

أما النقاش داخل الاستوديو، فركّز كعادة البرنامج على الاختلافات بين الشيعة والسنة في المضمون كما في الشكل (أي لناحية اختيار الضيوف). فحضر "عن الطائفة الشيعية" (التعبير لمعلوف) الشيخ زهير قوصان، الأستاذ في "المعهد الشرعى الإسلامى"، و"عن الطائفة السنية" (عبر الفيديو) الشيخ هشام خليفة، مدير عام الأوقاف الإسلامية ومسؤول توقيت الصلاة. الحديث كان فقهيّاً يتمحور حول تحديد توقيت الفجر وتعريفه ("الفجر المستطيل" و"الفجر المستطير"؛ "الفجر الصادق" و"الفجر الكاذب") مع انتقاد خليفة لعنوان الفقرة الذي يقول إن "المسلمين يصلّون خطأ منذ مئة عام". وكان تبرير معلوف ان هذا كان عنوان

الباحث "وليس نحن من اختاره" مؤكداً على ما قلناه سابقاً عن تفتيش البرنامج على الإثارة وعن السبق الإعلامي، إضافة إلى طرح مواضيع ليس لها علاقة مباشرة بأولويات المشاهد الاجتماعية وغير الاجتماعية. والنقاش الذي دحض مقولة الباحث المصري ياسر عبد الفتاح (أظهر تقرير صوتي أن البرنامج تواصل معه وأنه لا يستطيع التصريح للإعلام "إلا بموافقة مرجعيات أمنية ودينية"، كما تواصل مع رئيس المعهد القومي للبحوث الفلكية والجيوفيزيقية)، دفع بمعلوف إلى ولوج مسألة أخرى هي الاختلاف بين المسلمين في تحديد تواريخ الأعياد، ودائماً من زاوية "الخلاف بين السنة والشيعه".

ج. ممارسة مسيحيين لطقوس عاشوراء: صناعة العيش المشترك أيضاً وأيضاً

هذه المقاربة لممارسة الشعائر انسحبت أيضاً على فقرة أخرى (مدتها 19 دقيقة) كان للنشر " قد عرضها بتاريخ 2014/11/03. وهي تضيء على حالة خاصة وفردية أراد البرنامج من خلالها إظهار مشاركة مسيحيين في إحياء طقوس إسلامية. لكن اللافت المؤثرات المشهدية التي رافقت عرض هذه الحالة تحت عنوان "عائلة مسيحية كاثوليكية أبناؤها يضربون رؤوسهم خلال عاشوراء على طريقة طقوس هذه المناسبة". ويدخل التقرير (مدته دقيقتان ونصف) إلى منزل العائلة وتفاصيل حياة أفرادها: الأم إيفون التي تقول إنها "مسيحية متدينة لكنها ربّت أولادها على نهج الحسين وأهل البيت" وهي كانت تقيم مجالس عاشوراء في منزلها (يركّز التقرير على الرموز والأيقونات الإسلامية والمسيحية المشتركة على جدران المنزل كما التاتوهات المرسومة على جسد الابن)، الابنة أناستازيا التي "تضرب رأسها حتى يسيل الدم كنوع من المواساة"، الابن حنا التي "يضرب حيدر مذ كان عمرها 10 سنوات" لأن "الحسين ليس فقط للشيعه وإنما لكلّ مظلوم".

الصورة إذا التي تستجدي عيشاً مشتركاً تُستكمل داخل الاستوديو من خلال استضافة الأم وابنها الياس، ومن خلال النقل المباشر من صور حيث يقوم ولداها الآخران (حنا وأناستازيا أبو زيد) بمسيرة عاشورائية. وينتقل البثّ المباشر إلى ساحة عامة، يظهر فيها أربعة أشخاص فقط، حنا وأناستازيا منهم، يلبسون رداءً أبيض فوق ثيابهم، يقفون أمام الكاميرا وهم يقومون بلطم رؤوسهم والدم يغطّي وجوههم ولباسهم الأبيض. ويُستكمل هذا المشهد المركّب بأسئلة توجهها ربما كركي إلى أناستازيا التي تحمل ميكروفون بيد فيما تقوم بضرب رأسها باليد الأخرى. الأسئلة والاجوبة تركّز على أهمية المشاركة في إحياء طقوس الآخرين لأن "المسيحية هي تسامح ومحبة" ولأن "القرآن والإنجيل واحد"، كما تركّز على إمكانية "الانتماء إلى دينين أو طائفتين". إلا أن هذا المشهد الدامي يفرض طرح إشكالية ثانية، لا تلغي بالضرورة المشهد الأساسي الذي ينشده البرنامج، وهي تتمثل في رفض فكرة ضرب الرأس. وهنا يدخل على المشهد من صور، الشيخ علي بيضون، الذي يحدّد أن تكون المواساة "بأسلوب عقلاني وقلبي"، مع حرصه على التأكيد أن "أسلوبهم ليس محرماً"، بل "يرمز دون شكّ إلى قمة العطاء والمحبة". وتتدخل كركي، المؤيدة للمشهد، لتنتقد الرأي السلبي لرجال دين مسلمين في ما يتعلّق بممارسة مسلمين لطقوس مسيحية (الأشخاص المنفتحين

يعاقبون بأسلوب متشدّد؛ إذا مارس مسلمون طقوساً مسيحية خلال مناسبات معيّنة، هل تباركون أنتم كرجال دين مسلمين هذا الشيء بالمقابل؟؛ "لماذا المشايخ يتشدّدون أحياناً؟".

ويشترك في الحديث عن الظاهرة عبر الهاتف الخوري بطرس خليل، في غياب تام لمتخصصين في علم النفس أو في علم الاجتماع للتحدث عن هذه الظاهرة من منطلق علمي أو نفسي. واللافت كان الموقف المتشدّد لرجل الدين المسيحي إزاء سلوك عائلة أبو زيد. فقد اعتبر خليل أن "العيش المشترك لا يعني التمثيل" كما "لا يعني التخلّي عن إيماننا وديننا لحمل شعائر ديانة أخرى"، مضيفاً أنه يحترم "المسلم الذي يحترم كتابه وشعائره وعقيدته" كما يحترم "المسيحي الذي يعيش إيمانه ورسالته". وجاءت ردود كركي واسئلتها لتدافع مجدداً عن موقف العائلة ("هم يرون في المسألة ظلماً وهم ضدّ الظلم، كما أنهم يعتبرون أن مسيحيّتهم تكتمل بهذه المسألة؛" هل دخلت قلب الانسان لتعرف إذا كانت ممارسته لشعائر الآخر للظاهر فقط ولا تمسّ قلبه كما تقول؟). وتكرّر موقفها في ختام الفقرة: "هناك أناس يعتبرون أنهم ينتمون إلى كلّ الأديان، فليس من الخطأ أن نمارس كلّ الشعائر، ولكن أكيد ليس من خلال الضرب على الرأس".

6- السخرية من الأديان

تطرقت ثلاث فقرات من الأربع المتعلقة بمحور "السخرية من الأديان" إلى قضية رسوم الكاريكاتور المنشورة في صحيفة "شارلي إيبدو" والتي شكّلت حافزاً لهجوم سنّه مسلّحان على مقرّ الصحيفة في باريس بتاريخ 2015/01/7. وفي حين توزّعت هذه الفقرات على البرامج الثلاثة (عُرِضت في اليوم نفسه، أي بتاريخ 2015/01/12)، انفرد "النشر" بعرض قضية الكاتبة المصرية فاطمة ناعوت التي أُحيلت إلى المحاكمة بتهمة "ازدراء الدين" بسبب نشرها لموقفها حول مسألة الأضحية في الدين الإسلامي.

أ. "شارلي إيبدو" في "حكي جالس": خطاب محافظ واعظ لمعلوف مقابل حوار فكري جدي

في فقرة "حكي جالس" التي تناولت قضية "شارلي إيبدو" (مدّتها 30 دقيقة)، بدأت الحلقة مباشرة، دون جينيريك ودون أية مقدمات، بمشاهد عن المأساة والاعتصامات التي تلتها (إضاءة شموع، مسيرات، ومراسم دفن الضحايا، ترافقها موسيقى حزينة. التأثير الدرامي هذا والمتعاطف مع الضحايا لا يتعدّى الدقيقة، قبل أن تعود الصورة إلى الاستوديو حيث تابع جو معلوف، بمقدّمة طويلة نسبياً، هذا العرض ("الإرهاب الذي ضرب فرنسا، لم يمسّ الفرنسيين فقط، لم يمسّ المسيحي وحده، ولا المسلم وحده، (...)) مسّ لبنان، مسّ العالم من أصغر منطقة إلى أكبر دولة" (...)). في هذه المقدّمة يضع معلوف بداية اللوم ولو ضمناً على مجموعة معيّنة بذكره "الخمسة مليون مسلم" في أوروبا ("في قارة يعيش فيها أكثر من 500 مليون مسلم لم يشهدوا إلا على الأمن والسلام والحريّات، لم يرَ هؤلاء حدثاً مثل الذي وقع، منذ أكثر من خمسين سنة").

ويطرح معلوف في المقدمة أيضاً إشكالية مبسّطة، متحدثاً عن "الناس الضائعين، هل يجب أن يكونوا شارلي (أنا شارلي)، ام لا يجب أن يكونوا كذلك (أنا لست شارلي)"، مركزاً على ردود الفعل في المجتمع اللبناني، واقعاً في فخ المقارنة بين ضحايا باريس وضحايا انفجار جبل محسين "الذين لا نقل حياتهم أهمية عن حياة رسّامي الكاريكاتور"، فينتقل فجأة إلى الحديث عن "القتل والإرهاب" في لبنان، ويمرّ بـ"السلاح المنتشر بين أيدي "الزعران"، والمشرّع لكلّ الاستعمالات، في كلّ مدينة ومنطقة وحيّ". ويتابع قراءته "اللبنانية" لأحداث باريس، متسائلاً عن سبب عدم تضامن المجتمع الدولي مع لبنان كما فعل مع فرنسا، أو عن "سبب عدم 'أن أكون' جبران تويني عندما اغتالوه، أو مي شدياق عندما حاولوا قتلها" (إضافة إلى شخصيات لبنانية أخرى تعرّضت لمضايقات بسبب آرائها في مراحل سابقة). ثم يجيب على الإشكالية بنفسه في مونولوج يتخطّى الخمس دقائق، منتقداً بشدّة مضمون الرسوم (إذا كنا مع شارلي يعني أنني أرفض التطرّف والقتل والإرهاب، ولكنني أقبل بتطرّف يغدّي الحقد والكراهية، أقبل بحرية غير مسؤولة ترزع قنابل موقوتة"). وتظهر الخلفية الدينية في أسلوبه الواعظ ("ربّ الكون خلق هذه الأرض بتوازن، أي أن التطرّف بالانغلاق يقابله تطرّف بالحرية")، موزعاً لومه على قسم من اللبنانيين "الذين يعرفون كل زاوية من جادة الشانزليزيه ولا يعرفون طريق طرابلس"، على من "يضطهدون" مواطنين بسبب "ارتدائهم لحجاب" أو "وضعهم رمز الصليب" ليصل في إدانته إلى جميع اللبنانيين ("كلنا شركاء في الإرهاب")؛ "كلنا شركاء في تغذية الحقد، في البغض، في التفرة وفي العنصرية". وينهي مقدمته بدروس في السلوك ("ليس مطلوباً أن تكونوا شارلي، كما أنه ليس مطلوباً أن تكونوا أحداً، المطلوب أن تكونوا ضد الإرهاب والإجرام والتطرّف")، مشدداً على ضرورة مجابهة الفكر بالفكر، والكلمة بالكلمة وليس بالسلاح مستنداً مؤثرات مشهوية. إذ قام بكسر القلم الذي بين يديه للدلالة أنه "يتحوّل إلى قلمين أكثر شراسة"، في موقف يناقض ما بدأ به.

المقدمة الطويلة يليها تقرير آخر (من دقيقتين ونصف) يلخّص الأحداث من خلال مقتطفات من أخبار "المؤسسة اللبنانية للإرسال" وصور لرسوم تضامنية، تترافق مع موسيقى كلاسيكية في الخلفية، وذلك قبل أن يستقبل معلوف ضيفيه: نائب رئيس تحرير جريدة "الأخبار" بيار أي صعب (في الاستوديو)، وأستاذ العلوم السياسية في "المعهد الدولي للجغرافيا السياسية" الدكتور خطّار أبو دياب (عبر الأقمار الصناعية من باريس). ويمكن القول في اختيار الضيفين أنه أعطى بعداً تحليلياً اجتماعياً وفكرياً للحدث، إضافة إلى أنه صبّ في خانة الدفاع عن حريات التعبير، دون إقحام الرأي الديني. فأبو دياب انتقد "تضخيم البعد الديني للحدث"، مذكراً بأن الثورة الفرنسية "أحرقت الكنائس والأديرة". وشدّد على مشكلة اندماج المهاجرين التي يتحمّل فيها المسؤولية الطرفان (بعض المهاجرين الذين يغلبون انتماءهم الفئوي على الانتماء الوطني، وبعض المجتمعات المحلية المتعصّبة التي ترفض الآخر). إلا أنه اقترح على الدول الإسلامية والعربية المشاركة في قمة محاربة الإرهاب، المطالبة بـ"وضع نصوص قانون في الأمم المتحدة

تحرم المسّ ببعض المقدسات، ليس لتقييد الحريات بل كي لا يؤدي ذلك إلى اشعال المزيد من حروب الثقافات". هذه الفكرة انتقدتها أبي صعب لأنها تقيّد الحريّات وتنقض "نصف الفكر الفرنسي وأدبيّاته على سبيل المثال". كما انتقد موقف معلوف الذي تحدّث عن التطرّف في الحرية، معتبراً أن "التطرّف هو في ممارسة العنف"، فلا تطرّف في الحرّية إذ يبقى المرجع هو القضاء والقانون". ووافق أبي صعب زميله أبو دياب في الإضاءة على مشكلة الاندماج (إضافة إلى سياسة فرنسا الخارجية "المعادية للعرب وللمسلمين") كما في عدم تضخيم البعد الديني للحدث، مشدداً على أن نقد المقدّس هو نتيجة تطوّر للمجتمعات، "ومجتمعاتنا لم تقم بعد بثورتها اللوثرية". فالفرنسي المسيحي المؤمن يقبل ان تسخر الصحيفة من الرموز المسيحية، بينما لا يقبل بذلك المسيحي اللبناني المؤمن". ومن هذا المنطلق الليبرالي الاجتماعي، انتقد نائب رئيس تحرير "الأخبار" فكرة السخرية من رموز هذه المجتمعات في هذه المرحلة لأنها مجموعات مقموعة، مقهورة ومهمّشة، ويجب الأخذ بعين الاعتبار تطوّرها المجتمعي".

ب. "شارلي إيبدو" في "طوني خليفة-1544": المقاربة الدينية ترفض التطاول على الأديان

وكما فعل جو معلوف، لم يتردّد خليفة في الفقرة التي تناولت قضية "شارلي إيبدو" (مدّتها 43 دقيقة) في لبننة القضية مجرياً منذ البداية مقارنة بين ضحايا الصحيفة وضحايا التفجيرات في لبنان "الذين سقطوا على يد المجرمين أنفسهم أو من يرعاهم". فافتتح مقدّم "1544" فقرته بالتحدّث عن "الحقيقة الأكثر مرارة من الجريمة" وهي "كم أنك أيها المواطن الغربي محترم ودمك غالٍ لدى دولتك وحكومتك، وكم أنك أيها المواطن العربي محتقر من قبل دولك وحكوماتك!" (كرّر تعجبه من هذه المعادلة مراراً خلال الفقرة). هذا الموقف الذي يتخطّى الحدث استتبع بجملة من المواقف السياسية المتفرّقة، فانتقد خليفة من الزعماء العالميين من "ارتضى السير في الصفوف الأمامية" للمسيرة جنباً إلى جنب مع "رأس الإرهاب العالمي [رئيس الحكومة الإسرائيليّة] بنيامين نتنياهو"، ومن الزعماء اللبنانيين من "ركض للاعتصام في باريس" فيما "لم يعذب أحدٌ منهم نفسه للاعتصام أو التظاهر" عندما "استشهد لبنانيون" أو "خُطف جنود لبنانيون".

إذاً المقاربة الأساسية كانت سياسية، قبل أن ينتقل خليفة للشقّ الذي يهمنّا في الدراسة، أي الشقّ الديني. فالتقرير الذي عُرض (مدّته أقلّ من 3 دقائق) ذكّر بأن "الرسوم الكاريكاتورية تسبّب مشاكل واحتجاجات منذ سنوات"، في نبرة مننّقة للرسوم التي "تسخر من المسلمين" منذ 2005 والتي أضاء عليها التقرير تباعاً. وأكمل التقرير انتقاده الضمني للرسوم متحدثاً عن "تطاول" و"إساءات"، وهي "استهدفت كل الأديان لا سيّما الدين المسيحي الذي كان له حصّة كبيرة منها". إلا أنه من ناحية أخرى وصّف العملية بـ"الجريمة الإرهابية" (كذلك فعل طوني خليفة)، عارضاً لصور الضحايا ولمواقف جهات مسلمة شاجبة. فتشابهت الإشكالية التي طرحها مع إشكالية البرنامجين الآخرين: "هل يدخل في إطار حرّية التعبير التطاول على الديانات والإساءة لرموزها؟ وهل الردّ على الإساءة يكون بالقتل؟"

من جهة أخرى، كان واضحاً من خلال اختيار الضيوف أن المقاربة ستكون دينية وأن المواقف ستكون متشددة إزاء حرية التعبير. فقد طغى الحضور الديني من خلال الشيخ خلدون عريمط، الأمين العام للمجلس الشرعي الإسلامي الأعلى (في الاستوديو)، والشيخ أنجم تشودري، وهو داعية إسلامي "من الشخصيات الإسلامية الجهادية التي تمّ القبض عليها منذ فترة في لندن بتهمة تجنيد وإرسال مجاهدين"، وفق تعريف خليفة به (عبر الفيديو من لندن). أما الحضور المدني، فاقصر على الإعلامي غسان باسيل، رئيس تحرير في قناة "فرانس 24" (عبر الفيديو من باريس). الحديث تمحور بداية حول "الصورة السيئة التي يعطيها هؤلاء الإرهابيون عن الإسلام الذي هو بعيد كلّ البعد عن هذه الصورة"، كما قال مقدّم البرنامج، ثم انتقل إلى "نظرة الفرنسيين تجاه المسلمين". الشيخ عريمط "دان الإرهاب الذي ليس له دين"، مذكراً بالتاريخ الإسلامي "الذي نشر السلام والرحمة والمحبة"، رافضاً أن يكون الردّ "بهذه الطريقة" التي "تحول المجتمع إلى فوضى"، منتقداً بشدة مواقف الداعية تشودري المرحبة بالعملية. إلا أنّ عريمط استنكر الرسوم ووصفها بـ"الخطأ"، مذكراً بـ"الإرهاب في فلسطين وسوريا والعراق وعرسال" حيث "الضحايا هم مسلمون". وأيد تشودري في مداخلته العملية المسلّحة من خلال قوله "إنني لا يمكنني أن أكون ضدّ أشخاص يدافعون عن نبيّ الله مضيفاً أنه "كان يجب على المسلمين في فرنسا وفي العالم التحرك إزاء الإساءة التي تعرّض دينهم لها". وأصرّ على أن "من يسيء إلى النبيّ وشرفه يجب قتله".

وكانت مقاربة الإعلامي باسيل فكرية تفسّر طبيعة النظام الفرنسي وبالتالي تؤيد اتساع رقعة حرية التعبير، ما جعل دوره في النقاش محدوداً. وإذ اعتبر أن فصل الدين عن الدولة هو "العמוד الفقري للفكر الفرنسي" وأن "شارلي إيبدو" تمثّل "الفكر العلماني المتطرّف نوعاً ما ضد الأديان"، وهو "تمط فكري موجود منذ أكثر من قرن"، قال إن "السقف الذي يحدّ هذا الفكر هو القضاء". وكان حاضراً موقف طوني خليفة الذي دان "العملية الإرهابية" و"الإجرام" و"القتل باسم الدين" (خاصة عندما أعلن الداعية تشودري "أن من يسيء إلى النبي يجب قتله")، كما انتقد عدم احترام القوانين الداخلية للبلاد مقدّماً لصورة "معتدلة" عن الإسلام. لكنّ خليفة انتقد مفهوم الحرية "دون حدود ودون ضوابط" التي يمكنها أن "تؤذي الغير"، مع نزعتة إلى أخذ النقاش عشوائياً إلى أكثر من زاوية، مصرّاً على تعجّبه ممّا أسماه "ازدواجية التعاطي مع الأحداث" ("لماذا كل العالم يتضامن مع "شارلي إيبدو" ولا يتضامن معي كلبناني؟ وأنا مدعوس على رأسي كل يوم ورقبتي تحت السكّين!!؛ "سقطت عندنا أقلام" وما شفنا حدا شرف لعنا؟!").

ج. "شارلي إيبدو" في "النشر": التشدّد الديني والمؤامرة الصهيونية

أما ريما كركي، فتناولت في "النشر" قضية "شارلي إيبدو" ومسألة السخرية من الأديان في فقرة استمرت لحوالي 37 دقيقة. افتتحت المقدّمة الفقرة بإشكالية عامة: "هل هي حرية رأي أم هي هجوم على أديان؟، وبأي شكل من الأشكال يمكن للبعث أن يبرّر هذه الجريمة؟"، إلا أنها دانّت سلفاً الرسوم من خلال طرحها للسؤال الثالث التالي: "كيف يمكن أن يكون شكل العقاب الحضاري في هذا الموضوع؟". أما

التقرير الذي تبع المقدّمة (مدته دقيقتان ونصف)، فركّز على الحيزّ الخبري والعاطفي للحدث في آن، عارضاً لمشاهد إطلاق النار واعتصامات تضامنية (مع شعار "أنا شارلي") وإضاءة الشموع، وشهادات لمواطنين في حالة من الحزن والبكاء. التقرير ذكّر بأن الصحيفة "كانت قد أغضبت عواصم العرب والعالم الإسلامي لمزات عديدة، وعلى فترات متلاحقة بين 2011 و2014 بسبب رسومات مسيئة للرسول الكريم محمّد"، ووصف المتهمين بـ"الهجوم الدامي" الذي "قسم الرأي العام" بالـ"إسلاميين المتطرفين". وتساءل التقرير في النهاية "هل بدأت غزوة أوروبا التي طالما كُثِرَ الحديث عنها؟" في موقف غريب وتبسيطي يقسم العالم إلى معسكرين، "أوروبي" و"إسلامي"، في حرب مفتوحة، مع ما يثيره هذا الموقف من ردود فعل محتدمة ومنتشّجة.

أما النقاش، فجرى بحضور الشيخ رأفت ميقاتي، "بروفسور في القانون والشريعة الإسلامية"، السيد أمين أبو يحيى، "إعلامي ومنخصص بوسائل التواصل الاجتماعي"، والأستاذ الجامعي الدكتور خالد عبد الفتاح. وشارك عبر الهاتف كل من رسام الكاريكاتور "المعروف جداً في لبنان" ستافرو جبرا والصحافي سالم زهران. تمحور هذا النقاش حول حرية الرأي في أوروبا. واللافت ان كركي وجّهت أسئلتها تبعاً لنوع الضيف، فأجرت مقارنة بما يحصل عندما يتم تناول مسألة المحرقة في أوروبا "فتقوم الدنيا"، وتساءلت إذا كانت أوروبا "فعلاً تدافع عن حرية الرأي"، وفي مكان آخر، طرحت على الضيفين الإسلاميين أسئلة نقدية ("هل هذا يعني أن أي صحافي يتجرأ على نقد مسألة إسلامية أو يسيء للإسلام مرشّح للقتل؟").

آراء الضيوف الحاضرين اتسمت بموقف متشدّد يربط الحدث بإطار أكبر يهدف إلى ضرب الإسلام. ولم يشدّ عن هذه القاعدة سوى الإعلامي أمين أبو يحيى الذي أدان "العمل الإرهابي الذي لا يمتّ لا للدين ولا للإنسانية بصلة"، وتبنّى شعار "أنا شارلي" دون مضمون الرسوم. أما الأستاذ الجامعي خالد عبد الفتاح، فاستهلّ حديثه بتوبيخ المسألة رابطاً بين الوقوف دقيقة صمت في مجلس الأمن حداداً على ضحايا الصحيفة و"الصمت على مقتل الآلاف في سوريا وفلسطين" (وقام بالوقوف في الاستوديو داغياً المشاهدين أن يحذوا حذوه، ففعل ذلك الحاضرون بمن فيهم كركي). واعتبر أن الصحافيين الفرنسيين المعنّين "مجرمون"، و"لكن جريمتهم ما كان يجب أن تُعاقب بالإعدام"، واصفاً خروج مسلمين أو ثلاثة لا تحملهم أعصابهم "للردّ بهذه الطريقة بـ"الأمر الطبيعي" متحدّثاً عن "خطوط حمراء لا يجوز الاقتراب منها". من جهته، تكلم الشيخ رأفت ميقاتي أيضاً عن "جرائم تحقير" وهي "تختلف تماماً عن حرية التعبير"، فدان الصحافيين بـ"جريمة الحضّ على الكراهية" و"الإرهاب الفنّي" (متجنباً توصيف القتل بـ"الإرهابيين" رداً على سؤال لكركي) و"الإخلال بالسلم العالمي"، متحدّثاً عن "حرب على الانتماء الديني في العالم". وربط ميقاتي الحدث بالحركة الصهيونية التي تريد "ضرب المقدّس" و"ضرب الوجود الإسلامي الإيجابي في فرنسا"، متهماً الحركة بـ"غزوة أوروبا". كما وصف المشاهد المنشورة عن الحدث بالـ"هوليوودية" مشكّكاً أيضاً بهوية المنفذين، غامزاً من قناة المؤامرة على الإسلام ("إن أذكوبة الحادي

عشر من أيلول تتكرّر في الحادي عشر من يناير؛ "اليهود يريدون اقحام المسلمين في وجه الأوروبيين للإخلال بالسلم العالمي". المواقف السلبية المتشدّدة كانت تستدعي تدخّل كركي ("هذا ليس حكم اعدام، هذا قتل؛" صورة الإسلام تتشوّه من خلال هذه التصرفات؛ "هل قتل الشرطي الفرنسي أحمد مُرابط هو أيضاً مشهد هوليوودي؟!"; "سكوت المعتدلين أليس جريمة أيضاً؟"). علماً أنها كرّرت مراراً عبارة "مقدّسات" في حديثها عن الأفكار الدينية، واعتبرت أن "ربنا هو من يحاسب في النهاية وهو المرجع الأخير" مع التشديد على أن "الحرية" ليست مرادفاً "للإهانة".

من جهة أخرى، كان رأي ستافرو جبرا مشابهاً لرأي الإعلامي أبو يحيى، فلم يتبنّ مضمون الرسوم متحدثاً عن رقابة ذاتية يقوم بها الفنان عادةً، ولكنه انتقد وصف "الاعلاميين الفنانين" بـ"المجرمين". كما فرّق جبرا بين الرأي العام العربي الذي يرى في هذه الرسوم حرية تعبير وبين الرأي العام العربي الذي يرى فيها إهانة. ورداً على سؤال لكركي كان يمكن أن يطرح إشكالية المقدّس، أجاب بأنه "مؤمن بالتأكيد"، وأن الرسوم تستفزّه كمؤمن. ولم يختلف رأي الإعلامي سالم زهران (عبر الهاتف أيضاً) عن رأي المتشددّين، فقام أيضاً بتسطيح حادثة القتل متحدثاً عن ثلاث جرائم واضحة تراتبية لها من حيث "عنفها": الأولى هي "الإساءة إلى الرسول محمّد"، الثانية هي "القتل باسم الرسول"، أما الثالثة، وهي الجريمة الأعنف من الجريمتين الأوليين، فهي تلك التظاهرة-المسخ التي شارك فيها [رئيس الحكومة الإسرائيلية] بنيامين نتنياهو".

د. الكاتبة فاطمة ناعوت

الحلقة ذاتها من "النشر" تناولت في فقرة أخرى (28 دقيقة) موضوع السخرية من الأديان، من خلال عرض قضية الشاعرة والكاتبة المصرية فاطمة ناعوت. وكانت ناعوت قد دوّنت على صفحتها في كل من موقعي "فايسبوك" و"تويتر" رأيها حول الأضحية في الدين الإسلامي، وذلك في تشرين الأول 2014⁶، فقبل رأيها بالإحالة على المحكمة الجنائية بتهمة "ازدراء الدين الإسلامي والسخرية من إحدى شعائره"، وبانقادات من رجال دين. كركي استضافت ناعوت، وذلك قبل موعد الجلسة الأولى لمحاكمتها (حدّدت في 2015/01/28)، في حين شارك عبر الهاتف أحد رجال الدين المصريين المنتقدين لموقف ناعوت.

التقرير حول الموضوع، والذي تضمّن مشاهد من مقابلات سابقة لناعوت، اتّسم بالإيجاز (دقيقة ونصف) وبالطابع الخبري. إلا أن الملفت أن صيغة الحوار تبدأ مباشرة مع ضيف عبر الهاتف، الشيخ ناصر رضوان، "مؤسس ائتلاف أحفاد الصحابة وآل البيت" (علماً أن الاتصال انقطع في البداية). وفي هذه

⁶ "كل مذبحه وأنتم بخير. بعد برهة تُساق ملايين الكائنات البرينة لأهول مذبحه يرتكبها الانسان منذ عشرة قرون ونيف ويكرّرها وهو يبتسم. مذبحه سنوية تتكرّر بسبب كابوس باغت أحد الصالحين بشأن ولده الصالح. وبرغم أن الكابوس قد مرّ بسلام على الرجل الصالح وولده وآله، إلا أن كائنات لا حول لها ولا قوة تدفع كل عام أرواحها وتُحرر أعناقها وتُهرق دماؤها دون جريرة ولا ذنب ثمناً لهذا الكابوس القدسي (...)".

الصيغة بحث عن الإثارة المُبكرة من خلال إطلاق الجدل قبل الاستماع أولاً إلى الشخص المعني والحاضر جسدياً. أما النقاش، فجاء بمعظمه لغوياً فقهياً يتمحور حول تفسير بعض الألفاظ والعبارات الواردة في القرآن عن "رؤيا إبراهيم" وبعض العبارات الواردة في مشاركة ناعوت على موقع "فايسبوك". ولم تتدخل كركي إلا من خلال أسئلة بدت هادفة فقط إلى تفعيل الشجار الشكلي التلفزيوني ("شيخ ناصر برأيك لماذا حذفت مشاركتها من فايسبوك؟"; "ماذا تتوقع عقاباً للسيدة فاطمة؟"، إلخ.). وهذا ما حصل، خاتمةً: "رغم حديّة الجدل، التنوير الحقيقي هو بالنقاش".

7- الفساد في المؤسسات الدينية

المحور السابع والأخير تناول قضية مرتبطة بفساد داخل المحاكم الروحية المارونية انفرادياً بإثارتها برنامج "حكي جالس". وقد توزعت هذه القضية على فقرتين تمّ بثهما بتاريخ 2014/12/08 و 2015/01/05.

أ. ملف المحاكم الروحية المارونية: سقف عالٍ لخطاب نقدي

فقرتان خصصهما برنامج "حكي جالس" لقضية المحاكم الروحية المارونية والأجور العالية التي تتقاضاها من المواطنين في دعاوى الطلاق (300 دعوى سنوياً تتراوح تكاليفها بين 7 و 20 ألف دولار ومدتها بين 5 و 7 سنوات). طرح هذه القضية يعكس هامشاً من الاستقلالية أمام السلطة الدينية ومؤسساتها، دون أن يعني ذلك نقض دور الدين في المجتمع. الفقرة الأولى عُرضت بتاريخ 2014/12/08 (مدتها 21 دقيقة) وكان لافتاً فيها "لهجة" التقرير (مدته أربع دقائق ونصف) المرتفعة تجاه فساد رجال دين في المحاكم الروحية، إذ اتهمهم بـ"النصب" و"المماطلة بهدف الكسب المادي" والتسبب بـ"معاناة نفسية ومادية" للمواطنين الراغبين بالطلاق، عارضاً لائحة بأسعار الخدمات في المحاكم مشبهاً إياها بـ"السوبرماركت". كما عرض كيف تمّ التضييق على فريق العمل عند التصوير أمام محكمة روحية مارونية في الذوق، وقول المطران علوان لهم "روحوا صوّروا عند الكاثوليك". وكان لافتاً عرض لشهادات ميدانية لخمسة مواطنين تابعوا أو يتابعون قضايا طلاق (كلهم من الذكور) انتقدت السلطات الدينية ("إنها ملحمة مارونية ومن بداخلها جزار"; "سيقول البطارقة والمطارنة والأساقفة للربّ إنّنا قهرناهم [أي للمواطنين] وعذبناهم وأفقرناهم وشرذمناهم") وتحدثت عن "عمولات" و"رشاوى" يتقاضاها "الخوارنة" في الداخل ("بقدر ما يتدفع، بقدر ما يتسهّل بقضيتك"; "الخوري قال لي بداية روح جيب 15 ألف دولار وتعا"). ولم يتوان التقرير عن عرض شهادات لأناس غيروا مذهبهم لإكمال حياتهم، أو أبدو ندمهم "لأنني تزوجت كنسياً ولأنني تزوجت في لبنان".

من ناحية أخرى، أثار "تعمد" مقدّم البرنامج "عدم استضافة أي محامٍ يتابع دعاوى طلاق في محكمة روحية" تساؤلات حول الهدف من الطرح الأحادي لهذه القضية ("الليلة لا نريد سماع مرجعيات روحية تعطي تبريرات وأعدار على الهواء"), وذلك بغضّ النظر عن أحقيتها، مفضلاً الإبقاء على السيد ميلاد بو

ملهب كضيف من الفقرة السابقة ليناقشه في موضوع المحاكم الروحية متكلماً عشوائياً في أمور شتى لدقائق طويلة، موجهاً النصائح إلى "الصبايا"، وهو المتهم بتعنيف زوجة أخيه وتهديدها بالقتل. وتوالت الحلقة من خلال تلقّي اتصالات مشاهدين لديهم قضايا عالقة في المحاكم الروحية.

ب. ملف المحاكم الروحية-الجزء الثاني: المحافظة على سقف الخطاب مع إتاحة الهواء لأي كان

اما الفقرة الثانية التي تناولت ملف المحاكم الروحية والتي أثيرت بعد حوالي شهر من الفقرة الأولى (بتاريخ 2015/01/05)، فلم تحمل جديداً يُذكر من حيث الشكل والمضمون، لكنّها تميّزت بكونها الأطول زمنياً بين فقرات دراستنا الـ24 (56 دقيقة). وحافظت على السقف نفسه في التحدّث عن "الفساد في الدين وهو الفساد الأكبر"، "مع علمنا أننا سنُهاجم من قبل أشخاص متعصّبين"، إلا أنها تناولت هذه المرّة قضايا محاكم من طوائف أخرى (كاثوليكية، أرثوذكسية، آشورية، سنية وشيعية) إضافة إلى المارونية. فالتقرير (مدّته 6 دقائق) عرض لحالات مواطنين تم ابتزازهم في المحاكم الروحية، المارونية (رجلان) والأشورية (امرأة)، ومنهم من صرّح بأنه تلقى تهديدات في حال تحدّث عن الأمر في التلفزيون، فيما تعدّدت اتصالات المواطنين أصحاب القضايا (مع إعطاء الكلام لأصحاب تجارب إيجابية ولمنتقدين لطرح الموضوع) وتتوّعت (4 إناث وذكوران من طوائف مختلفة). أما الجديد فكان محاولة التقرير، كما بيّنت المشاهد، التحدّث إلى مسؤولين في المحاكم الروحية دون جدوى، وإعلان معلوف أن الأب عبدو أبو كسم (رئيس المجلس الكاثوليكي للإعلام المُكلّف التكلّم باسم الكنيسة) كان سيحلّ ضيفاً على الفقرة قبل أن يغيّر رأيه بسبب وجود أبو ملهب، و"لم يرغب أي مسؤول روحي آخر أن يحلّ ضيفاً على الفقرة".

من ناحية أخرى، كان لافتاً الإبقاء على الضيف نفسه (ميلاد بو ملهب) دون أي مبرّر، مستمراً بالصراخ وتوزيع النصائح الغريبة ذات المضمون السياسي-الديني ("أدعو البطريرك الماروني الى التوجه سيراً إلى بعبداء الليلة وفتح القصر الجمهوري وإقامة صلاة الدنج هناك")؛ "أيها البطريرك، لا تردّ على عون ودعك من جعجع ومن الجميل، سمّ الرئيس أنت!")، مع الاستعانة بمؤثرات مشهدة. فقد وصل بو ملهب حافياً يلقي الشعر ويلبس رداء أبيض طويلاً، واضعاً على رأسه اكليل شوكٍ وحاملاً صليباً كبيراً كتبت عليه عبارات تنتقد السلطات الدينية (المسيحية والإسلامية) والسياسية. ويدخل معلوف في نقاشات عديدة، عقيمة وعشوائية، مع ضيفه الذي فاخر بلهجته المعادية للمرأة. وقد اقتصر دور هذه النقاشات على استجداء الإثارة بأي ثمن ("ماذا تفعل لو كنت مكان البطريرك؟"; "لماذا المحاكم الروحية ليس لها لزوم؟").

خلاصات

تعددت المواضيع الدينية على منابر البرامج التلفزيونية الحوارية الثلاثة (المرصودة بين تشرين الثاني 2014 وكانون الثاني 2015) وتشعبت، من العام جداً إلى الخاص جداً، من الموضوع الساخن إلى الموضوع القديم المكرر، فاختلقت درجة أهميتها، للمشاهد كما للمجتمع، كما اختلفت طرق مقاربتها. إلا أنه يمكننا بعد الدراسة التي أجريناها استخلاص جملة من الأمور المشتركة التي اتسمت بها هذه البرامج في تناولها للموضوع الديني. سنتحدث أولاً عن تلك السمات المشتركة، ثم سنحاول ثانياً إلقاء الضوء على خصائص كل برنامج من البرامج الثلاثة المرصودة في هذا المجال.

أولاً: الاعلام كجزء من المنظومة السياسية

لا شك أن منظومة الاعلام الخاص جزءاً من النظام الطائفي اللبناني، تتأثر بتركيبته وتعكس انقساماته الرمزية وتترجمها صراعات طائفية-دينية على منبرها. ولا تشذ البرامج الثلاثة المرصودة عن هذه القاعدة، وقد لمسنا ذلك من خلال مجموعة من الملاحظات يمكن تلخيصها على الشكل التالي:

-سيطرة رجال الدين على المساحة المخصصة للموضوع الديني في البرامج الثلاثة (50%)، يقابلها ضعف حضور أصحاب الاختصاص (7%) أو المتعاطين بالشأن العام (10%)، مع ما ينتج عن ذلك من تسويق للرواية الدينية ولمصطلحاتها وإعطاء الشرعية حصراً للمعتقدات المحصورة في المذاهب الكبرى، الأمر الذي يعكس قوة الدين في المجتمع اللبناني (والعربي).

-ويمكن ملاحظة الالتزام الديني الصريح والواضح لمقدمي البرامج الثلاثة الذين غالباً ما يكون لديهم موقف مسبق من الموضوع المطروح. هذا الالتزام ينعكس إقراراً بالسلطة المعنوية التي يملكها رجال الدين في تحديد خيار المواطن في مسائل متعددة ومتنوعة تتخطى أحياناً البعد الديني.

-التسليم بالرواية الدينية يتمثل أيضاً في غياب المحللين والنقاد عن المواضيع التي تتناول ظواهر دينية "شرعية"، وحضورهم فقط في المواضيع التي يتوافق فيها الرأي العلمي مع رأي رجال الدين. فعند الحديث مثلاً عن رجل يسكنه الجن وإبليس، وهو أمر تدحضه الرواية الدينية، أو عند تناول مسألة "غسل دماغ" الانتحاريين، يتوقر في النقاش موقعٌ لمختصّ في علم النفس أو في علم الاجتماع. أما عندما يكون الحديث عن العجائب والمعجزات أو عن ظاهرة التقمص، وهي أمور تؤيدها الرواية الدينية (وكذلك مقدمو البرامج)، فلا يعود هناك مكان لعالم نفس أو اجتماع. هذا عدا عن أن دور هؤلاء في الفقرات الحوارية غالباً ما يكون محدوداً في المدة الزمنية ومهمّشاً لناحية متابعة مقدمي البرامج لأفكارهم، خصوصاً في حضور رجال الدين.

-سيطرة رجال دين الطوائف الثلاث الأكبر عدداً (المارونية، السنّية والشيعية) على منابر البرامج الثلاث دون سواهم، في غياب تام لممثلين عن الطوائف الإسلامية والمسيحية الأخرى، وعددها 14، باستثناء حضور رجل دين درزي واحد لاعتبارات تتعلّق بالموضوع المطروح (التقمّص). ويُلاحظ أيضاً أن اختزال المشاركة المسيحية برجال دين من الطائفة المارونية فقط (مع التعريف بهم كممثلين للطوائف المسيحية) ينطبق حتى في الحالات التي تتعلّق فيها المسألة المطروحة بطائفة أخرى (مزار مار الياس في عين سعادة).

-حضور مرتفع لرجال الدين السنّة (13)، كانعكاس للصراع السياسي الدائر حالياً في المنطقة والذي يشهد صعود مجموعات سنّية متطرّفة (الأمر الذي يفسّر أيضاً تنوّع مذاهب رجال الدين السنّة المشاركين)، يقابله حضور معتدل نسبياً لرجال الدين الشيعة (9) يُستخدم لمواجهة الحضور السنّي، عاكساً أيضاً لصراع سياسي في المنطقة غالباً ما يتخذ هوية طائفية. في المقابل، يبدو حضور رجال الدين المسيحيين أقلّ بروزاً (7)، ليس فقط في العدد، إنما أيضاً في الشكل، إذ يحتلّ ثلاثة منهم مساحة ثانوية في الفقرات الحوارية (مداخلات محدودة عبر الهاتف)، في مقابل مشاركة كاملة خلال الفقرة وأكثر أهمية (في الاستوديو أو عبر الفيديو) لرجال الدين الآخرين.

-طغيان الموضوع الديني العقائدي على الموضوع الديني الاجتماعي، مع ما ينتج عن ذلك من استثمار لكلّ ما يبدو خلافياً في الشكل، وذلك دون خوض معمّق في المسائل المطروحة. هذه المقاربة الخلافية تفسّر إتاحة الهواء لخطاب متشدّد يجد صدهاء في البرامج المعنية التي تبتعد عن المسائل الاجتماعية والحياتية اليومية للمواطن.

-سقف النقاش يلتزم حدوداً معيّنة (دينية وسياسية) تظهر في فقرات عديدة. على سبيل المثال، اتّسمت فقرة "شارلي إيبدو" في كل من "النشر" و"طوني خليفة-1544" بطرح المسألة من زاوية سياسية-اعلامية (تأثير الحدث على صورة الإسلام، نظرية المؤامرة، التفاوت بين الإساءة في الرسوم وردة الفعل...)، دون مقارنة اجتماعية تطرح فكرة المقدّس للنقاش، عدا عن أن سياق النقاش (في البرامج الثلاثة) لم يكن يتيح للمشاركين المدافعين عن الصحيفة بالتبنيّ المفتوح لمضمون الرسوم. وفي مسألة الفساد في المحاكم الروحية، لم يتناول "حكي جالس" إلا السلطة الدينية للطائفة التي تُحسب المحطّة عليها، رغم إعلانه المتكرّر أنه سيتناول "المحاكم الأخرى"، كما أنه امتنع في السياق نفسه عن التسويق للزواج المدني مثلاً، وهي قضية مطروحة على المستوى الوطني. السقف هذا بدا أيضاً واضحاً خلال طرح قضية جورج كيوان في "النشر".

-ضعف حضور العنصر الأنثوي على منابر البرامج الثلاثة (11 مقابل 49)، خاصة في ما يتعلّق بفئة رجال الدين. كما يمكن ملاحظة تهميش نسبي لدور المرأة في النقاش، وهو يندرج ضمن إطار تهميش

واضح لأصوات الاختصاصيين والمحلّين لصالح رجال الدين (خاصة عندما يتواجد هؤلاء على المنبر نفسه).

ثانياً: الاعلام كمساحة بديلة

على الرغم من الملاحظات السابقة، يمكننا القول إن الاعلام الخاص يشكّل، ولو بنسبة محدودة، سلطة مضادة (un contre-pouvoir) بمواجهة السلطة الدينية الموجودة. فالمساحة البديلة التي وفّرتها البرامج الحوارية تشكّل خرقاً ولو محدوداً في المشهد القائم، وقد برز ذلك من خلال الملاحظات التالية:

-رغم سيطرة رجال الدين على منابر البرامج الثلاثة، خاصة في الموضوع الديني العقائدي، كان لافتاً حضور النقاد والمحلّين في محاور مرتبطة بالموضوع الديني الاجتماعي، مع تسجيل خطاب نقدي (خاصة في فقرتي "شارلي إيبدو" والفساد في المحاكم الروحية في "حكي جالس" وفي فقرات أخرى من "للنشر").

-انتقاد السلطة الدينية في أكثر من فقرة من "حكي جالس" (موضوع المحاكم الروحية) و"للنشر" (موضوع الفتاوى وقضية جورج كيوان)، عكس هامشاً من الاستقلالية عن تلك السلطة، ولكن دون التشكيك بها أو المسّ بدورها.

-تسويق مقدّمي البرامج الثلاثة لخطاب ينبذ العنف بكل أشكاله وينتقد مظاهر التطرف الديني كما ينتقد المواقف المتطرّفة لعدد من المشاركين.

ثالثاً: البحث عن الإثارة وتأثير الاعلام الجديد

بدا واضحاً في سياق تحليلنا لل فقرات الحوارية البحث الدائم عن الإثارة، أكان ذلك من خلال اختيار الموضوع والضيوف، من خلال مضمون التقارير وطرح الإشكالية، أو من خلال المؤثرات المشهدية المستخدمة. البحث عن الإثارة يقرّ به ضمناً مقدّمو البرامج حين يبرّرون تناول موضوع ما بـ"كثرة تداوله على مواقع التواصل الاجتماعي" التي بدا واضحاً أنها مصدر أساسي يغذي بالمواضيع والأفكار هذا النوع من البرامج (خاصة في "حكي جالس"). وفي هذا الإطار، يمكننا تسجيل الملاحظات التالية:

-المقاربة الخلافية للمواضيع الدينية تطغى على البرامج الثلاثة ومقدّميه (بصورة خاصة في "1544" و"حكي جالس")، فالحوار أو المناظرة تجري دائماً إما بين سنة وشيعة، أو بين مسلمين ومسيحيين (تميّز خليفة بتوصيف الحوار في برنامجه بـ"المناظرة الإسلامية-المسيحية" أكثر من مرة). هذه المقاربة تستغلّ أو، في تعبير أقلّ وقعاً، تستثمر واقعاً سياسياً واجتماعياً معيّناً بهدف البحث عن الإثارة الفورية، الأمر الذي يفسّر أيضاً المساحة الكبيرة المتاحة لرجال دين ذوي خطاب متشدّد.

-في الإطار نفسه، يمكن ملاحظة استخدام أي موضوع خلافي لطرحه، وذلك بغض النظر عن حجمه وأهميته (الفيلم الإيراني عن النبي ومسألة الاختلاف في مواعيد الصلاة في "حكي جالس" على سبيل المثال)، في إطار استهلاكي يبحث عن تأثير فوري قصير المدى، ما يفقد المادة أو المعلومة المقدّمة قيمتها المعرفية.

-السعي الدائم للبرامج الثلاثة، بنسب متفاوتة، إلى تسجيل سبق صحفي، يُترجم بصورة أساسية من خلال تضخيم الموضوع المطروح وإغراقه بالمواقف الاستعراضية (تبادل الأدوار بين المقدم والضيف في فقرة طرابلس ومشهد طرد الجنّ في "النشر") وبالمؤثرات على أنواعها (أبو ملهب في فقرة المحاكم الروحية في "حكي جالس" وممارسة عائلة لبنانية مسيحية لطقوس عاشوراء في "النشر")، حتى ولو بدا الطرح ركيكاً (قضية شقيق أبو علي الشيشاني في "حكي جالس"، اقحام الجنس مطوّلاً في قضية إبليس والجنّ في "النشر") أو المقاربة ضعيفة (السلفيون في طرابلس وزواج المثليين في "النشر"، ظاهرة النقمص في "1544")، وذلك على حساب جدية الطرح ووقت المشاهد.

"النشر" (تلفزيون الجديد)

تتميّز مقدّمة برنامج "النشر" بحفاظها على المسافة الأكبر مع الموضوع المطروح مقارنةً بزميلها. ويمكن ملاحظة سعيها الدائم إلى إبراز صورة معتدلة عن الدين، تدفعها أحياناً إلى التدخّل لتوجيه الحوار بهذا الاتجاه (فقرة الفتوى عن الاحتفال بأعياد الآخرين، فقرة الانتحاريين)، فضلاً عن التعبير عن إيمانها بالقدرة على التغيير من داخل المؤسسات الدينية وعلى يد رجال الدين أنفسهم (ثنائية متشدد/معتدل حاضرة دائماً في خطابها). من ناحية أخرى، اتسم "النشر" بحضور أنثوي بارز مقارنةً بالبرنامجين الآخرين، وكذلك بحضور رجال دين ذوي خطاب مشدّد، يقابلهم دائماً رجال دين بخطاب أقلّ حدّة، وذلك سعياً من البرنامج إلى تظهير ثنائية متشدد/معتدل بهدف التسويق للثاني (تسويق الاعتدال).

"حكي جالس" (المؤسسة اللبنانية للإرسال)

لا يتبنّى "حكي جالس" سياسية معيّنة تجاه الموضوع الديني، ولكنّه يسعى أولاً إلى طرح كل ما يمكن أن يثير المشاهد، فينتج عن ذلك أحياناً تناقض في المضمون بين أقسام الفقرة الثلاثة: التقرير، طرح المسألة من جانب المقدم، والنقاش الذي يدور بين الضيوف. لكنّه في المقابل يتميّز بهامش واسع من الحرية التي تتيح له انتقاد عمل المؤسسة الدينية الداخلي (وليس سلطتها)، فهو الوحيد الذي أضاء على قضايا فساد فيها. وقد وازن بين البعدين الاجتماعي (57%) والعائدي (43%)، الأمر الذي عكس اهتماماً أكثر بروزاً بمواضيع تتعلّق بقضايا الناس اليومية. ويتميّز البرنامج بمساحة كبيرة مخصّصة لمقدّمه يطرح فيها بصورة أحادية مستقلّة، أي قبل استقبال الضيوف وبعده، أفكاره وآراءه، في إطار وعظي وتبسيطيّ بارز.

"1544-طوني خليفة" (تلفزيون المر)

الفقرات الدينية التي أثارها طوني خليفة في برنامجه قليلة (4)، إلا أنها تتميز بأنها صبت كلها في البعد العقائدي للدين، ومرد ذلك إلى البحث عن الإثارة من خلال طرح مواضيع خلافية وجدلية بعيدة عن المشاكل الاجتماعية اليومية. وتميز طوني خليفة بإصراره الدائم على طرح مواضيعه من زاوية خلافية إسلامية-مسيحية أو سنية-شيعية. كما تميز بإقحام رأيه الشخصي المحافظ في النقاشات وبتبني التام للروايات الدينية (العجائب والمعجزات، التقمص)، بحيث يتحول من مدير للحوار إلى طرف فيه. ومع أن خطابه الواعظ أقل حدة من خطاب زميله في "حكي جالس"، إلا أنه لا يتوانى كما معلوف عن الغوص في مسائل وأمور عديدة، متشعبة، وأحياناً متناقضة، في الفقرة الواحدة.